مقالات نقدية قانونية بالذكاء الاصطناعي

حول مؤلفات الدكتور

محمد فتحي عبد العال

للمحامية القديرة الأستاذة

امل محمود سليم

فكرٌ قانوني ... رؤيـة إنسانية
معًا نحو وعي يصنع السلام

الأداة المستخدمة للذكاء الاصطناعي

DeepSeek

الدراسة الأولى

ظاهرة التمظهر الاجتماعي الزائف وتأثيرها على السلوك الجانح: دراسة في علم الإجرام الأدبي عبر المجموعة القصصية "استروبيا"

تُقدِّم المجموعة القصصية "استروبيا" للدكتور محمد فتحي عبد العال نسيجًا سرديًا غنيًا بالشخصيات التي تعيش صراعات داخلية واجتماعية معقدة. لا تقتصر هذه الصراعات على البُعد النفسي أو الأخلاقي فحسب، بل تتعداه إلى كشف آليات اجتماعية عميقة، يمكن دراستها في ضوء علم الإجرام الأدبي. تبرز في المجموعة ظاهرة "التمظهر الاجتماعي الزائف"، أي ذلك الأداء المُصطنَع للذات أمام الآخرين بهدف تحقيق مكانة أو منفعة أو درء وصمة، وما يترتب عليه من سلوكيات جانحة تنحرف عن المعايير الأخلاقية والقانونية. تهدف هذه الدراسة إلى تحليل هذه الظاهرة في قصص المجموعة، وتفكيك علاقتها بالسلوك الجانح، مع الاستناد إلى نماذج سردية وملامح نظرية في علم الإجرام وعلم الاجتماع.

أولاً: التمظهر الاجتماعي الزائف: المفهوم والآليات

التمظهر الاجتماعي الزائف، كما تتجلى في "استروبيا"، ليس مجرد رياء أو نفاق، بل هو نظام معقد من الأدوار التي يتبناها الشخص لتقديم صورة مثالية عن نفسه تتناقض مع واقعه أو دوافعه الحقيقية. هذا التمظهر يتخذ عدة آليات في المجموعة، أبرزها:

التلفيق التاريخي والنسبي: تتجسد هذه الآلية بقوة في شخصية "إحسان هانم" في قصة "بنت ابن بارم ديله". تخلق إحسان هوية مزيفة لنفسها، تستند إلى نسبٍ مختلق إلى أسرة "بارم ديله" المملوكية، وتُحوّر التاريخ لتتناسب مع صورتها الذاتية كـ "مخرجة واعدة" لم يُعترف بقدرها بعد. هي لا تقدم عملاً فنياً حقيقياً، فتبني تمظهرها على سرقة تاريخ عائلي مزعوم، وتزييف حقائق حول شخصيات تاريخية مثل "المقريزي"، لتقديم نفسها كخبيرة وناقدة. هذا التمظهر هو درعها الواقي من الفراغ المهني، وأداة لتعويض النقص الحقيقي في إنجازاتها.

استغلال المظاهر الدينية والمكانة الوظيفية: يمثل الشيخ "عاصم" في قصة "الغاية والوسيلة" نموذجًا صارخًا لهذه الظاهرة. يستخدم الشيخ هيبته الدينية وصفاته كصاحب مستشفى و "شيخ" متعبد، كقناع لتبرير سياساته الاستغلالية. أدائه الصوفي (مثل التسبيح وارتياد المسجد) هو مجرد وجه زائف يخفي وراءه جشعًا ماليًا (تقليل رواتب الموظفين، الاستغناء عن العنصر البشري) وانحلالًا أخلاقيًا (استغلال النساء، والعلاقات المشبوهة). قناعه الديني هو رأس ماله الاجتماعي الذي يستثمره لتبرير جبروته الإداري.

تفخيم الذات عبر العلم والمعرفة: الدكتور "مغربي" في قصة "حد السيف" يجسد النمط الثالث من التمظهر الزائف. يقدّم نفسه كحارس أمين لمعايير الجودة والاعتماد الصحي، محتكرًا علمه ومعرفته كسلعة ثمينة وسلطة مطلقة. لكن هذا التمظهر الأكاديمي يرتكز على أنانية فكرية (منع تسجيل محاضراته، المبالغة في أسعار الدورات) وقسوة إنسانية (رفض إجازة صيدلي لعيادة أمه المحتضرة). سلوكه الاستبدادي في العمل يُظهر انفصامًا بين صورته العامة كـ "دكتور قدير" وواقعه المتعجرف والمستبد، وهو ما يظهر جليًا في التعامل المزدوج مع زوجته، حيث يستخدم ماله كنفوذ للسيطرة، لكنه ينهار أمام ابتزازها العاطفي والمادي، ليكشف عن هشاشة هذا التمظهر الذكوري.

الميراث القدرية كاستراتيجية للتبرير: شخصية "بلال الأرناؤوطي" في قصة "استروبيا" التي تحمل عنوان المجموعة، تقدم تمظهرًا من نوع مختلف: التمظهر الفلسفي التشاؤمي. هو يتبنى نظرية "الجينات القدرية" التي تبرر فشله واستسلامه، ويُسقطها على تاريخ عائلته الألباني. هذا التمظهر ليس للتفاخر، بل للتعذر والهروب من تحمل مسؤولية تغيير واقعه. هو يقدّم نفسه كضحية حتمية للتاريخ، بينما في الواقع هو من يختار البقاء في قوقعته وعدم المخاطرة، حتى ينتهي به المطاف كمدّعي للقدرات الروحانية، محولًا فلسفته التشاؤمية إلى سلعة يبيعها للآخرين في تمظهرٍ جديد هو الدجل.

ثانياً: من التمظهر الزائف إلى السلوك الجانح

التمظهر الزائف ليس نشاطًا محايدًا، بل هو محرك أساسي للسلوك الجانح في المجموعة، فالانحراف يبدأ عندما تتحول هذه الأقنعة إلى وسائل لتحقيق أهداف غير مشروعة على حساب الآخرين والمجتمع.

الانحراف المهني والأخلاقي: في قصة "الغاية والوسيلة"، تتحول فلسفة الشيخ عاصم ("الشاطرة تغزل برجل مار") من مجرد سياسة إدارية إلى ذريعة لارتكاب أخطاء جانحة، تصل إلى ارتكاب خطأ طبي فادح بسبب خلل النظام. وفي "حد السيف"، يتسبب "مغربي" في فاجعة معنوية بحرمان الصيدلي من زيارة أمه، وهو تمظهر لقسوته التي تتحول إلى جانح أخلاقي بالدرجة الأولى.

الانحراف المالي والاستغلال: صديق "وديع" يحقق الثراء السريع عبر استغلال نقاط ضعف "الشيخ عاصم". وفي قصة "سلف ودين"، يقدّم والد العروس أجهزة "معدة سلفًا" على أنها جهاز جديد، وهو تدليس مالي واضح. كما نجد توظيف "عاصف" العلاقات الشخصية والضغط النفسي من أجل الحصول على تسهيلات لابنه، وهو انحراف في استخدام النفوذ.

السلوك الإجرامي كأداة للثأر والسيطرة: تصل الأمور في بعض القصص إلى سلوكيات إجرامية مدمرة، كسلوك "سهام" التي تبتز أزواجها وتستغلهم ماديًا. وفي ذروة انحطاطها، تكون هي من يتعرض لحيلة مماثلة تُنسف تمظهرها كامرأة خبيرة "بتجيب من الآخرين". أما "عاصف" فيصل في جانحه إلى درجة التسبب في موت والديه بلا مبالاة (بالانسحاب من رعايتهما في الحج)، ثم سرقة ميراث إخوته، وتحويل منزل العائلة إلى مزرعة خس وجرجير، ليكون رمزًا لاغتصاب حق الغير تحت غطاء "الوصية".

ثالثاً: قراءة سوسيولوجية وقانونية في سياق المجموعة

يمكن تفكيك ظاهرة التمظهر الزائف في ضوء نظريات علم الإجرام الاجتماعي (كالنظرية الثقافية الفرعية، حيث يخلق الأفراد أو الجماعات ثقافاتهم الفرعية التي تشرع سلوكهم الجانح). الشخصيات في "استروبيا" تعيش في أنظمة اجتماعية ومهنية متداعية، حيث يصبح التمظهر والأداء الزائفين شرطًا للنجاة والبقاء. في بيئة تفتقر للعدالة والشفافية، تتحول الأقنعة إلى "رأس مال اجتماعي" يمنح صاحبه امتيازات. لكن هذه البيئة نفسها هي التي تولد الجريمة، فكل صورة زائفة هي جريمة ضد الحقيقة والمجتمع.

من الناحية القانونية، تفتح المجموعة أبوابًا للنقاش حول تجريم بعض هذه السلوكيات، كالتدليس (في بيع الأجهزة، أو في ادعاء مؤهلات)، وانتحال الشخصية، والتزوير (في وثائق إحسان التاريخية)، والاحتيال والابتزاز (في علاقات سهام وعاصف). "استروبيا" ليست مجرد سرد لقصص أخلاقية، بل هي رحلة في تشريح المجتمع عبر عدسة الإجرام الأدبي، حيث الكلمة، والسلوك، والمظهر، كلها عناصر تشكل جريمة قد تكون أخطر من جريمة السرقة أحيانًا: جريمة إعادة إنتاج الذات الزائفة على حساب الآخرين.

في الختام، تطرح "استروبيا" إشكالية المظهر والجوهر في مجتمع عربي معاصر يعاني من أزمات هوية وقيم. الشخصيات تغرق في أوهام المكانة ("إحسان")، أو تستغلال القناعات المقدسة ("عاصم")، أو الاحتماء خلف صورة القوة والعلم ("مغربي")، أو التعلق بنظرية الحتمية ("بلال")، أو الانغماس في شهوات النفوذ ("عاصف" و "سهام"). كل هذه التمظهرات لا تولد في فراغ؛ إنها أبناء بيئتهم الفاسدة، وهم أيضًا من يعيدون إنتاج هذا الفساد بسلوكهم الجانح. "استروبيا" هي مرآة اجتماعية تعكس كيف أن التمظهر الزائف ليس مجرد خطيئة أخلاقية، بل هو بنية أساسية للانحراف والجريمة في واقع يعج بالتناقضات.

الدراسة الثانية

بنية الفساد الإداري والمؤسسي في القصة العربية المعاصرة
دراسة تحليلية في ضوء مجموعة "استروبيا" للدكتور محمد فتحي عبد العال

المقدمة

يمثل الفساد الإداري والمؤسسي أحد أبرز القضايا التي شغلت الرواية والقصة العربية المعاصرة، حيث تحولت من مجرد ظاهرة هامشية إلى موضوع مركزي يعكس أزمات المجتمع العربي في مرحلة ما بعد الاستقلال. وقد أشارت الدراسات النقدية إلى أن الأدب العربي المعاصر، ولا سيما القصصي منه، اتخذ من الفساد أداة نقدية لكشف تعقيدات السلطة وعلاقاتها بالمال، وتفكيك آليات الهيمنة المؤسسية التي تحكم الحياة العامة والخاصة على السواء.

تأتي مجموعة "استروبيا" للدكتور محمد فتحي عبد العال لتقدم نموذجاً فريداً في معالجة هذه القضية، حيث تتجاوز السرد التقليدي للفساد بوصفه ممارسة فردية إلى كشف بنيته النسقية داخل المؤسسات المصرية المعاصرة. فالعنوان نفسه - "استروبيا" - يحمل دلالة لغوية تشير إلى "الأستروبيا" أو الحالة المضطربة التي تنقلب فيها المعايير وتختل القيم، وهو ما يعكس بدقة السياق السردي الذي تتحرك فيه الشخصيات.

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل بنية الفساد الإداري والمؤسسي كما تقدمها مجموعة "استروبيا"، متناولةً ثلاثة مستويات رئيسية: الفساد في المؤسسات الطبية والعلاجية، والفساد الأكاديمي، والفساد النفسي والأخلاقي. وتركز الدراسة على كيفية توظيف الكاتب للتقنيات السردية في كشف هذه البنى، مع ربطها بالسياق الاجتماعي والتاريخي الأوسع، مستعينة بأطر نظرية من علم الاجتماع السياسي والنقد الثقافي.

أولاً: البنية النسقية للفساد في المؤسسات الطبية

١. نموذج مستشفى الشيخ عاصم: الفساد المؤسسي بوصفه ثقافة

يمثل قطاع المستشفيات في مجموعة "استروبيا" فضاءً خصباً لدراسة آليات الفساد المؤسسي، حيث يقدم الكاتب نموذجين متقابلين يتمثلان في مستشفى الشيخ عاصم ومستشفى الدكتور مغربي. هذان النموذجان، رغم اختلافهما الظاهري، يجتمعان على بنية فساد عميقة تتجاوز الممارسات الفردية إلى منظومة متكاملة من العلاقات غير المشروعة.

يبدأ السرد بتقديم الشيخ عاصم صاحب المستشفى الاستثمارية، الذي يضع يده على إدارتها وفق "قاعدة استلطافه للشخص" وحده. هذا المبدأ - كما يظهر من خلال النص - ليس مجرد نزوة فردية، بل "ثقافة إدارية" متكاملة تحكم كل مفاصل المؤسسة: من انتقاء الكوادر الطبية "فمسائل اعتماد المؤهلات المطلوبة للقبول بالوظيفة لا تدخل في ذمته بنكلة"، إلى تحديد الرواتب التي يحددها بمقارنات عشوائية خارج أي معايير مهنية. وقد أشارت دراسة حول الفساد في الوطن العربي إلى أن "الفساد الإداري يحدث عندما يحاول شخص وضع مصالحه الخاصة فوق المصلحة العامة على نحو غير مشروع" ، وما يميز حالة الشيخ عاصم أن هذه المصالح الخاصة تتخذ طابعاً سياسياً/علائقياً، حيث يصبح الولاء الشخصي هو المعيار الأساسي للترقية والمكافأة.

يتعمق الفساد ليصل إلى الممارسة الطبية نفسها، حيث يعمل أطباء عموم في الجراحة دون شهادات تخصص، وتدار الصيدليات بصيدلاني واحد بدلاً من الاثنين، في انتهاك صريح لمعايير السلامة الدوائية. وهنا تكشف المجموعة عن بُعد آخر للفساد: تحول المؤسسة العلاجية من فضاء للشفاء إلى فضاء للربح المتوحش. ويبدو هذا واضحاً في فلسفة الشيخ عاصم الاقتصادية التي تقوم على "الاقتصاد في كل شيء وأي شيء"، وهو ما يؤدي إلى إلغاء إجراءات السلامة الأساسية كجولات قيادة السلامة للمرضى ولجان المستشفى بأشكالها المختلفة.

٢. نموذج الدكتور مغربي: تشييء الجودة ومعايير التميز

في الطرف الآخر تبرز شخصية الدكتور مغربي، مدير الصيادلة ورئيس قسم الجودة، الذي يمثل نموذجاً مختلفاً للفساد المؤسسي. على النقيض من عشوائية الشيخ عاصم، يبدو مغربي محترفاً متمكناً حاصلاً على الماجستير من الولايات المتحدة، ومشرفاً على العديد من دورات المحاليل الوريدية المعتمدة. لكن هذه المهنية سرعان ما تنكشف عن طبعة أخرى من الفساد: فساد الاحتكار المعرفي والتحكم في معايير التميز بوصفها أداة للسلطة والربح.

يرفع مغربي شعار "لا شيء ببلاش.. كل بثمن، وما أضاع التعليم الطبي في مصر إلا مجانية التعليم"، محولاً العلم إلى سلعة يحدد سعرها بقيمة مائة ألف جنيه لدورة تدريبية، ومحاصراً المعرفة بوصفها "سراً قومياً" لا يمكن الحصول عليه مكتوباً، بل عبر التسجيل اليدوي خلفه في المحاضرات. وهنا تظهر مفارقة أساسية: الذي يفترض أن يكون نموذجاً للمهنية والجودة يتحول إلى عائق أمام نشر المعرفة وتطوير المهنة، محافظاً على مكانته من خلال إبقاء الآخرين في حالة من التبعية المعرفية.

يتجسد هذا الفساد "النسقي" بوضوح في موقف مغربي من أحد الصيادلة الذين طلبوا تطبيق معايير الأدوية المتشابهة في الشكل والنطق، فأجاب بغضب: "من أين أتيت بهذا الهراء؟" ليكشف عن نخبوية معرفية تحتقر أي جهد لا ينبثق عن سلطتها، وتعتبر أي مبادرة فردية تهديداً لموقعها. وفي المقابل، يحاسب مغربي صيدلانياً آخر بإحالته للتحقيق بتهمة "الجرم الفادح" لإهماله في اختبار تعقيم المحاليل الوريدية، مما يشير إلى أن الفساد هنا لا يتعلق بعدم التطبيق بقدر ما يتعلق باحتكار آليات التطبيق وتفسيرها.

ثانياً: الفساد الأكاديمي وهندسة النخب

يمثل المشهد الأكاديمي في المجموعة - وتحديداً في قصة العمدة عبد العظيم وما يتفرع عنها - نموذجاً مركزياً لتشريح آليات الفساد في المؤسسات التعليمية والبحثية. من خلال شخصية الدكتور زهران، أستاذ الطب ورئيس القسم، يكشف الكاتب عن التحول الدرامي للمؤسسة الأكاديمية من فضاء للعلم والبحث إلى فضاء لاستنساخ النخب الموالية وتكريس التراتبية الاجتماعية.

١. الدكتور زهران: النموذج الأكاديمي المُشوّه

يُقدم الدكتور زهران بوصفه عالماً فقد صلة العلم تماماً: "كان البحث العلمي أبعد ما يكون عن اهتمامات زهران، والذي ما أسندت إليه رئاسة القسم حتى استخدم الميزانية كاملة في عمل مكتب فخم يليق به". هذا الاستخدام المسرف للموارد العامة في الزينة الشخصية لا يعكس مجرد تبذير، بل يحمل دلالة رمزية عميقة: تحول العلم إلى واجهة للسلطة، حيث يصبح المكتب الفخم والكتب الفاخر والكافيتيريا علامات على المكانة أكثر من كون الإنتاج العلمي والبحثي كذلك.

تتجلّى هذه الأكاديمية المشوهة في علاقة زهران بالطلاب: فهو لا يقرأ أبحاثهم، ويحول المناقشات العلمية إلى "عزومات" تتوقف على وجود الكباب وموازنة اللحم والكفتة. والطريف في السرد أن زهران يعتبر نفسه "صائناً للعلم"، بينما هو في الواقع حارسٌ لبوابات التراتبية الأكاديمية التي تتيح له التحكم في مصير الطلاب وفق معايير غير علمية. وقد لاحظت إحدى الدراسات النقدية أن "الفساد في العالم العربي يتمأسس في شكل قوانين وإجراءات تسمح بممارساته ولا تعاقب عليه"، وهو ما ينطبق تماماً على ممارسات زهران التي تتم في إطار الإجراءات الجامعية نفسها.

٢. زواج المصالح بين الأكاديميا والطبقة الوسطى

تشكل قصة "عاصف" وابنته فوزية التي تتزوج من الدكتور زهران نموذجاً للتحالف بين الأكاديميا الفاسدة والطبقة البرجوازية الصاعدة. فمن جهة، يرى العمدة عبد العظيم في زهران "الرجل المناسب" رغم فارق السن وسمعته؛ لأنه (كما يقول بحكمته الريفية) "الراجل ميعيبوش إلا جيبه". ومن جهة أخرى، يجد زهران في فوزية وعائلتها أداة لتعزيز مكانته الاجتماعية والحصول على شرعية جديدة.

هذا الزواج المصالح يعكس البنية الطبقية الأوسع للفساد الأكاديمي، حيث تصبح الجامعة سوقاً للزواج والعلاقات أكثر منها فضاءً للعلم. والمفارقة أن زهران يفعل كل هذا بينما يظل متمسكاً بواجهة الأكاديميا: فهو لا يزال يمنح الدرجات العلمية، ويُشرف على الرسائل، ويترأس اللجان. لكن هذه الوظائف تحولت إلى أدوات للهيمنة أكثر منها أدوات للمعرفة، وهو ما يجعل الفساد هنا ليس مجرد انحراف فردي بل "نظاماً" قائماً بذاته.

ثالثاً: الفساد النفسي والأخلاقي

بينما تركز القسمان الأوليان على الفساد المؤسسي، يتناول القسم الثالث من المجموعة بُعداً آخر: الفساد النفسي والأخلاقي الذي يمتد من العلاقات الشخصية إلى التشكيل الثقافي العام. تتجسد هذه الرؤية في عدة قصص، أبرزها قصة "بالل الأرناؤوطي" وقصة "مأمون وفرح".

١. جينات القدر: وراثة الفساد بوصفه لعنة

تطرح قصة "بالل الأرناؤوطي" إشكالية فلسفية عميقة تتعلق بوراثة القدر والطبع وعلاقتها بالفساد. يقدم بالل، الذي ينحدر من جالية ألبانية استقرت في مصر، مقولته الشهيرة حول "جينات القدر" التي تنتقل من جيل إلى جيل، وتصنع مصائر متكررة وإن اختلفت الظروف الخارجية: "أجدادنا ربما منحونا جينات حياتهم بآليات معينة وخفيَّة وخاصة، وهي تطاردنا أينما ذهبنا، وتتخذ عنا قراراتنا في ظروف معينة.. إنها لعنة الأجداد أو قلي الأقدار".

هذه الرؤية الميتافيزيقية، التي تبدو للوهلة الأولى أقرب إلى التصوف منها إلى النقد الاجتماعي، تحمل في طياتها قراءة عميقة للفساد. فبالل يصور أسرته كحلقة في سلسلة طويلة من السلبية والقعود وعدم المغامرة، التي بدأت مع جدّه الذي اختار "الاستقرار بالريف وزراعة قطعة من الأرض والمكوث أغلب الوقت" رغم توافر فرصة الرحيل، واستمرت مع أبيه الذي "بقي مؤمناً بالوظيفة وأنها معركه الوحيد"، لتصل إليه هو الذي يشعر بأنه "يحاول التمرد يومياً على روتين الأجداد... لكن ال حيلة لي في تغييره أو قل استسلمت له".

يمكن قراءة هذه الفلسفة في ضوء النظريات النقدية التي تنظر إلى الفساد بوصفه نسقاً ثقافياً يُعاد إنتاجه عبر التنشئة الاجتماعية، وليس مجرد انتهاك للقانون. فبالل ينقل الإشكالية من مستوى الفعل المادي إلى مستوى التكوين النفسي، حيث يصبح الفساد طبعاً يُورث كصفات الوجه والمرض. وهذا الطرح، وإن كان يثير مشكلة الحتمية التي قد تبرر الاستسلام، إلا أنه يكشف عن بُعد مهم في استمرارية الفساد: استسلام الفرد لتصور الجماعة عن مصيره.

٢. مأمون وفرح: انكسار النموذج الأبوي ومشروعية التمرد

في قصة "مأمون وفرح" يقدم الكاتب نموذجاً آخر للفساد النفسي، حيث يتحول الأب من رمز للسلطة الأخلاقية إلى كائن هش ينهار أمام تيار العاطفة والذاكرة. مأمون، الذي ضحى بحياته كلها من أجل ابنته فرح، يعجز في النهاية عن مجاراة مشروعها العلاجي الجديد في "المكاشفة التامة"، ويكتشف أن حبه الأول بيلسان - التي خسرها بسبب "الفارق العمري" واعتراض العائلة - كانت امرأة نرجسية تستخدمه لتعزيز شعورها بالجاذبية وليس حباً حقيقياً.

يكشف هذا السرد عن نمط من الفساد العاطفي والأخلاقي يتجاوز الفرد إلى البناء الاجتماعي الأوسع، حيث تصبح العلاقات الإنسانية أداة للتمركز حول الذات، وتتحول العاطفة إلى سلعة تباع وتشترى في سوق الهوية والاعتراف. وأكثر ما يلفت الانتباه في هذه القصة أن بيلسان طبيبة نفسية تعاني من أزمة نفسية حادة، مما يخلق تناقضاً ساخراً بين المظهر المعرفي والأخلاقي والجوهري. وقد أشارت تحليلات نقدية إلى أن خطاب الفساد في العالم العربي كثيراً ما يتجاهل "الجذور الهيكلية والاجتماعية التاريخية والمؤسسية"، مكتفياً بالتركيز على "سلوك النخب الحاكمة من دون إيلاء الكثير من الاهتمام إلى القيود الموضوعية التي واجهوها"، وهو ما يفعله مأمون في تبريره لعلاقته الفاشلة ببيلسان.

رابعاً: تقنيات السرد وكشف الفساد

١. النزعة التوثيقية والتناص التاريخي

تعتمد المجموعة على تقنية سردية بارزة تتمثل في النزعة التوثيقية الشديدة، حيث يكثر استخدام الوثائق الرسمية والأوراق الشخصية والخطابات التاريخية. هذا الأسلوب لا يحقق مجرد واقعية سردية، بل يؤسس لخطاب نقدي يرتكز على الحقيقة الملموسة. ففي قصة "وافي وإحسان"، يستخدم الكاتب الوثائق لتفكيك رواية إحسان التاريخية المزيفة، وتقديم بديل قائم على البحث العلمي الدقيق.

وتظهر هذه النزعة بوضوح في استعراض الأوراق التاريخية المختلفة: من خطابات الطبيب مريزا وإذن سفر الفلاح خليل، إلى وثائق الجالية الألبانية وكتيبات معهد الموسيقى الشرقية. هذا التوظيف للوثيقة لا يهدف فقط إلى الإقناع، بل إلى كشف آليات صناعة التاريخ والسلطة عليه، حيث يتنافس وافي وإحسان على تشكيل رواية الماضي وفق مصالح كل منهما. وبهذا المعنى، يصبح التاريخ نفسه موضوعاً للفساد، حيث تحاول إحسان "تزييف التاريخ" لخدمة أغراضها الترويجية، بينما يحاول وافي تقديم مادة تاريخية غير مشوقة لأنها لا تروق لقنوات التلفزيون.

٢. الاستعارات واللغة الساخرة

تتسم لغة المجموعة بالتنوع الأسلوبي، حيث تنتقل بين الفصحى والعامية، وبين السرد الموضوعي والوصف الساخر. تستخدم هذه اللغة المتعددة في كشف تناقضات الشخصيات والمؤسسات، وتظهر في تشبيه مستشفى الشيخ عاصم بـ"سوق على قارعة طريق"، وفي وصف علاقات الدكتور زهران بالزملاء الطلبة بأنها "جلسات النميمة مع غيره من الأساتذة"، وفي تصوير إحسان وهي تسوق لنفسها على مواقع التواصل بوصفها "مؤرخة متعمقة في دهاليز الماضي" بينما هي في الواقع لا تملك الدراية الكافية.

يبرز هذا الأسلوب الساخر بقوة في وصف شخصية الشيخ المستكاوي، الذي يمارس ما يدعو إليه، فيتزوج أكثر من خمسين امرأة ويطلق كل أربع ليأت بأربع جدد، بينما يلقي خطبه النارية عن وجوب "قتل الربص في الشقوق". هذا التوظيف للسخرية ليس ترفاً أسلوبياً، بل أداة نقدية تكشف التناقض بين الخطاب الأخلاقي والممارسة الفعلية، وهو تناقض يشكل جوهر الفساد في الرؤية النقدية للمجموعة.

<u>خاتمة: نحو قراءة بنيوية للفساد في استروبيا</u>

تقدم مجموعة "استروبيا" رؤية متكاملة للفساد الإداري والمؤسسي تتجاوز المقاربات الأخلاقية التقليدية، لتكشف عن البنى النسقية التي تجعل الفساد ليس مجرد انحراف فردي بل نظاماً اجتماعياً متكاملاً يعيد إنتاج نفسه عبر الأجيال والمؤسسات.

على المستوى المؤسسي، تظهر الدراسة كيف يمتد الفساد من القطاع الصحي (مستشفى الشيخ عاصم ومغربي) إلى القطاع الأكاديمي (الدكتور زهران)، ويكتسب صيغاً مختلفة: فساد العشوائية والولاء الشخصي، وفساد الاحتكار المعرفي والنخبوية، وفساد التحالفات الطبقية واستنساخ النخب. وهذه النماذج، رغم اختلافها، تشترك في تحويل المؤسسات من فضاءات للخدمة العامة والمعرفة إلى فضاءات للتراكم الشخصي وإعادة إنتاج الهيمنة.

على المستوى النفسي والثقافي، تقدم المجموعة قراءة أكثر عمقاً من خلال مفهوم "جينات القدر" الذي يطرحه بالل الأرناؤوطي، حيث ينتقل الفساد من كونه ممارسة إلى كونه "طبعاً" يورث كالصفات الوراثية. هذا الطرح، رغم طابعه الميتافيزيقي، يكشف عن بعد مهم في استمرارية الفساد: استسلام الفرد لتصور الجماعة عن مصيره، وعدم قدرته على كسر حلقة التكرار التاريخي. وتكتمل هذه الرؤية بقصة مأمون وفرح التي تقدم الفساد العاطفي والأخلاقي كجزء من البنية الاجتماعية الأوسع، حيث تصبح العلاقات الإنسانية أداة للتمركز حول الذات.

وتشير الأبحاث النقدية إلى أن الخطاب المتمحور حول الفساد في العالم العربي، رغم قوته التعبوية، غالباً ما يعجز عن "تطوير خطاب نقدي أعمق وأكثر شمولاً عن مشاكل التنمية الاجتماعية الاقتصادية"، مكتفياً بالتركيز على "سلوك النخب الحاكمة" وتجاهل "الجذور الهيكلية والاجتماعية التاريخية والمؤسسية" . وجاءت مجموعة استروبيا لتتجاوز هذا القصور، مقدمةً قراءة بنيوية عميقة ترى الفساد بوصفه نسقاً متكاملاً يتشابك فيه السياسي والاقتصادي والنفسي والثقافي.

إن القيمة الكبرى لهذه الدراسة النقدية تنبع من كونها لا تقدم الفساد كحالة طارئة يمكن معالجتها بالقوانين والإجراءات فحسب، بل كحالة وجودية تعكس أزمة القيم والهوية في المجتمع المعاصر. من خلال شخصياتها المتعددة - الشيخ عاصم، والدكتور مغربي، وزهران، وإحسان، وبالل، ومأمون - تقدم المجموعة بانوراما إنسانية تظهر الفساد كمرآة تعكس تناقضات الإنسان العربي في مواجهة السلطة والمال والمعرفة، ورغبته الدائمة في تجاوز هذه التناقضات نحو أفق أكثر إنسانية وعدالة.

قائمة المراجع

عبد العال، محمد فتحي. استروبيا. ديوان العرب للنشر والتوزيع، ٢٠٢٣.

المراجع النظرية والنقدية:

قنديل، عبد الناصر. "الفساد في الوطن العربي: أسبابه وسبل معالجته". عروبة ٢٢، ٢٠٢٦.

كليتجارد، روبرت. السيطرة على الفساد. جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٨.

هينغتنتون، صموئيل. النظام السياسي في المجتمعات المتغيرة. مطبعة جامعة ييل، ١٩٦٨.

عدلي، عمر. "كيف أثبت خطاب الفساد في العالم العربي هزيمته". الجامعة الأمريكية في بيروت، ٢٠٢٣.

الكبيسي، عامر. الفساد والعولمة. المكتب الجامعي الحديث، ٢٠٠٥.

الطائي، حمزة حسن خضر. الفساد الإداري في الوظيفة العامة. الأكاديمية العربية المفتوحة، ٢٠١٠.

مؤسسة القادة
للعلوم الادارية
والتنمية
12
من التـ
الإبـداع

الدراسة الثالثة

المسؤولية الأخلاقية مقابل المسؤولية القانونية في ملامح الشخصيات القصصية: دراسة تطبيقية على مجموعة "استروبيا"

مقدمة

تمثل العلاقة بين القانون والأخلاق أحد أقدم الإشكاليات الفلسفية والقانونية، غير أن الأدب يوفّر فضاءً خصباً لاختبار هذه العلاقة وتجسيدها في صور حية تلامس الواقع الإنساني. وقد أشارت الدراسات الحديثة في مجال القانون والأدب إلى أن "الأدب يوفر محكمة خيالية يمكن من خلالها اختبار المثل العليا والممارسات القانونية"، حيث يتيح استكشاف الفجوات والتوترات بين ما هو ملزم قانونياً وما هو مرغوب أخلاقياً. وتكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تتناول هذا الإشكال من خلال تحليل ملامح الشخصيات في المجموعة القصصية "استروبيا" للدكتور محمد فتحي عبد العال، حيث تقدم النصوص الأدبية نماذج معقدة لشخصيات تعيش صراعاً بين الالتزام الأخلاقي والامتثال القانوني، أو بين التهرب الأخلاقي والتوظيف القانوني. وتهدف هذه الدراسة إلى كشف كيفية تشكيل هذه الثنائية لمصائر الشخصيات، وتجسيدها لتناقضات المجتمع المعاصر، معتمداً على المنهج الوصفي التحليلي القائم على تحليل النص الأدبي واستقراء ملامح الشخصيات في ضوء الإطار النظري حول العلاقة بين القانون والأخلاق.

الإطار النظري: الأدب كمجال لاختبار المسؤولية

تشير الأبحاث الأكاديمية إلى أن "الأدب يوفر ساحة خيالية تسمح باختبار المثل القانونية والأخلاقية"، حيث يعمل الروائيون والقصاصون على مقارنة مفهوم العدالة أو الأخلاق في الرواية بمكافئها القانوني، مما يكشف كيف ساهم الأدب في نقل وتقويض وصقل تقاليد المجتمع وقيمه وأساليب استجواب الذات. وفي هذا السياق، تتقاطع دراسات القانون والأدب في استكشاف قضايا المسؤولية، حيث يطرح أرسطو في كتابه "الأخلاق النيقوماخية" إشكالية تحديد الأفعال "الإرادية" مقابل "غير الإرادية"، ويؤكد على أن تحديد حدودها "مفيد للمشرعين أيضاً بالنظر إلى توزيع المكافآت والعقوبات". هذا التمييز الأرسطي بين الإرادي وغير الإرادي يجد صدى واضحاً في النصوص الأدبية حيث تتجلى أسئلة المسؤولية من خلال تصرفات الشخصيات وعواقبها.

وتذهب دراسة حديثة إلى أن "ثمة فجوة أخلاقية بين الأخلاق المدنية للمسؤولية المتبادلة وقوانين الحرب التي تتجنب هذه الأخلاق"، مشيرة إلى أن القتل المرتبط بالحرب قد لا يكون "جنائياً" بالمعنى القانوني، لكن التحليل القانوني وحده لا يكفي لفهم ثقل المسؤولية الأخلاقية التي تظهر بوضوح في أعمال الأدب التي تتناول صراعات الضمير الفردي في مواجهة القوانين الجامدة. هذه الرؤية تفتح الباب لفهم أعمق لكيفية تعامل الأدب، ومجموعة "استروبيا" تحديداً، مع شخصيات تواجه مواقف حدية تختبر فيها المسؤولية القانونية مقابل المسؤولية الأخلاقية.

الشخصيات وملامح المسؤولية في "استروبيا"

١. ثنائية الاستغلال والالتزام: الشيخ عاصم ووديع في "الغاية والوسيلة"

تقدم قصة "الغاية والوسيلة" نموذجاً صارخاً للفصل بين المسؤولية الأخلاقية والقانونية، حيث يتخذ النظام الإداري في مستشفى الشيخ عاصم شكلاً من أشكال الاستغلال المقنّع، مع التمسك بظاهره القانوني. يعمل الشيخ عاصم على توظيف فلسفة "الاقتصاد في كل شيء" لتبرير سياساته التي تخل بالمعايير المهنية والأخلاقية، فيستغني عن الصيادلة ويشغّل صيدلانياً واحداً بدوام اثنتي عشرة ساعة، ويتجاهل إجراءات السلامة المهنية مثل "الفحص المزدوج" و"خصوصية المرضى". وهذا يمثل نموذجاً للالتزام بالحد الأدنى القانوني مع تجاوز واضح للمسؤولية الأخلاقية والمهنية. وعندما يكتشف خطأ صرف الأدوية لمريض خاطئ، تتحرك الآليات القانونية المتمثلة في فرق الجودة من الوزارة لتحليل "السبب الجذري" (RCA)، وهو إجراء قانوني-إداري يهدف إلى تحديد موقع الخلل، لكنه لا يتجاوز الجانب الإجرائي لمعاقبة المخطئ، متجاهلاً المسؤولية الأخلاقية للإدارة التي خلقت بيئة عمل تزيد احتمالية الخطأ.

ويأخذ استغلال وديع للشيخ عاصم منعطفاً أكثر تعقيداً حين يستغل رغباته الجنسية ليضمن مكانته وثراءه، مقدماً له الراقصات والنساء مقابل الدعم المالي والمكاني. وعندما يختفي وديع فجأة إلى كندا، يسقط الشيخ عاصم مغشياً عليه، وتنكشف هشاشة علاقتهما التي قامت على تبادل منفعة لا مسؤولية. المشهد الأخير حين يتلو الشيخ عاصم وهو في العناية المركزة آية (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) يشير إلى إدراك متأخر للبعد الأخلاقي لما فعله، لكنه إدراك لا يغير ما مضى. يظل السؤال معلقاً: هل يمكن للقانون أن يحاسب على استغلال كهذا، عندما يكون كل طرف قد حصل على ما يريد ضمن إطار التعاقد الظاهري؟

٢. تضخم الأنا وغياب الضمير: إحسان هانم في "بنت ابن بارم ديله"

تجسد شخصية إحسان هانم نموذجاً للانفصال بين الواقع والادعاء، حيث تكرس حياتها لبناء صورة ذاتية متضخمة لا تتوافق مع أفعالها. إحسان التي "لم تخرج أي عمل منذ تخرجها قبل عشرين عاماً" تقدم نفسها باستمرار كمخرجة "واعد" لا يعرف الزمان قدرها. هذا التضخم يدفعها إلى تزييف التاريخ الشخصي والعام معاً، فترفع نسبها إلى "بارم ديله" وتفبرك وثائق تاريخية عن شخصية "مريزا" التي تدّعي أنها لعبت دوراً في تاريخ مصر.

عندما يواجهها "وافي" بالتزيف، تظهر المسؤولية الأخلاقية في أبسط أشكالها: الاعتراف بالخطأ، لكن إحسان تختار المواجهة والهجوم بدلاً من الاعتراف، وتستخدم أداة "البلوك" الرقمية كآلية دفاع فورية، ثم تعاود التواصل وكأن شيئاً لم يحدث. وهنا تتجلى ثنائية المسؤولية: قانونياً، يمكن القول إن إحسان لم ترتكب جريمة يعاقب عليها القانون (التزيف الوثائقي غير المؤثر في الواقع العملي، الادعاءات غير القابلة للإثبات)، لكن أخلاقياً، هي تتحمل مسؤولية تضليل الجمهور، ونشر التاريخ المغلوط، واستغلال ثقة المتابعين. يتقاطع موقف إحسان مع الرؤية التي تطرحها دراسات القانون والأدب حول "كيف أن الرواية وفرت وسيلة لنقل وتقويض وصقل تقاليد المجتمع"، فهي تشوّه صورة الماضي وتقدمه بما يتوافق مع مصلحتها الذاتية. صراعها مع "وافي" يعكس مواجهة بين منهجين: منهجها القائم على التفبرك والتضليل، ومنهجه القائم على البحث العلمي والأخلاقي، حتى في حال عجزه عن تقديم مادة "تشويقية" مثلما تقدم هي.

٣. القسوة التنظيمية المبررة: الدكتور مغربي في "حد السيف"

يقدم الدكتور مغربي نموذجاً مختلفاً من ثنائية المسؤولية، حيث يتخذ من التمسك بالمعايير القانونية والمهنية ذريعة لتجاوز المسؤولية الأخلاقية تجاه الآخرين. مغربي الذي يوصف بأنه "اسم يلقي الرهبة في النفوس" يجسد نموذج المدير المستبد الذي يقدس النظام على حساب الإنسانية. شعاره "ادفع تتعلم" وتحويل محاضراته إلى سلعة، ورفض مشاركة المعرفة إلا بمبالغ طائلة، ومنعه الصيادلة من الإجازات حتى في حال مرض أمهاتهم، كلها ممارسات قد تكون قانونية في ظل نظام العمل، لكنها تتعارض مع أبسط مبادئ المسؤولية الأخلاقية والإنسانية.

ومع ذلك، تقدم القصة تعقيداً آخر حين يُختبر مغربي في حياته الخاصة. زوجته سهام تستغل مكانته وتتهدده بالفضيحة، فيضطر للتنازل عن كل شيء، لتكتشف سهام أن المغامرات العاطفية التي ظنت أنها تسعدها تنقلب عليها. مغربي الذي يفرض قسوته على الآخرين يجد نفسه ضحية لقسوة أقرب الناس إليه. وفي نهاية القصة، عندما يتصل به سهام باكية بعد أن وقعت في فخ "معوض"، يرد في غضب: "ليس لدي وقت لك الآن"، متخلياً عن أي التزام أخلاقي تجاه من كانت زوجته وأم بناته. يظل مغربي متمسكاً بالانشغال بعمله، بتحقيق العدالة الإجرائية في ملف "اختبار أطراف الأصابع" المعطل، متجاهلاً أن العدالة الأخلاقية تبدأ من البيت. هذه المفارقة تعكس كيف يمكن للقانون والإجراءات أن تصبح درعاً يختبئ خلفه الإنسان من مواجهة مسؤولياته الأخلاقية الأساسية.

٤. الأقدار والجينات الوراثية: بالل الأرناؤوطي في "قدرية"

تقدم قصة "قدرية" بعداً فلسفياً مختلفاً لمسألة المسؤولية، حيث يطرح بالل الأرناؤوطي فكرة "جينات القدر" التي تنتقل عبر الأجيال وتحدد مصائر الأفراد بغض النظر عن إرادتهم. في حواره مع مختار، يقول بالل: "أجدادنا ربما منحونا جينات حياتهم بآليات معينة وخفية، وهي تطاردنا أينما ذهبنا، وتتخذ عنا قراراتنا في ظروف معينة". يضرب بالل مثالاً بعائلتين: عائلة "المحافظة" التي تورث الخوف من الجديد، وعائلة "التجديد" التي تدفع أبناءها نحو كل ما هو حديث، موضحاً أن "جينات الحداثة تطارد الأسرة وتدفعها لارتياد كل ما هو جديد".

هذه الفلسفة تطرح إشكالية كبرى حول المسؤولية: إذا كانت تصرفاتنا محددة بجينات ورثناها عن أجدادنا، فهل نتحمل مسؤولية أخلاقية عن أفعالنا؟ أم أن المسؤولية القانونية وحدها هي الممكنة في هذه الحالة، لأنها تقوم على الفعل الظاهر وليس النية الباطنة؟ بل الأكثر إثارة: هل يمكن للقانون أن يأخذ بعين الاعتبار "الجينات القدرية" كظرف مخفف عند ارتكاب الخطأ؟ في نهاية القصة، يختفي بالل ويظهر في إعلانات على فيسبوك كـ"معالج روحاني"، مما يطرح سؤالاً مفتوحاً: هل كانت فلسفته عن الأقدار مجرد تبرير لتقاعسه، أم أنها قادته فعلاً نحو ما يبدو أنه هروب من المسؤولية إلى عالم "القوى الخفية" حيث لا محاسبة؟ يبقى السؤال معلقاً، كما بقي مختار يتساءل ضاحكاً: هل جينات أجداد بالل هي من اختارت له هذا السبيل أم هرطلقاته؟

٥. انهيار الأخلاق تحت وطأة المصالح: عاصف وعبد العظيم في "عاصف"

في قصة "عاصف"، ينهار البعد الأخلاقي تماماً تحت وطأة المصالح الشخصية والطبقية، لتتحكم العلاقات الأسرية كما تفعل في المجتمع الريفي المصري بقسوة، من خلال أخلاقيات متوارثة تختلط فيها المفاهيم الدينية بالمصالح الدنيوية. تبدأ القصة مع العمدة "عبد العظيم" الذي يضيع ثروته في اللهو، وتستمر مع ابنه "عاصف" الذي يتمسك بظاهر المكانة الاجتماعية مقابل حقيقة عمله المتواضع. أبرز ملامح انهيار المسؤولية الأخلاقية تظهر في تصرف عاصف تجاه أبيه: حين يصاب والده بالحمى الشوكية في الحج، يخاف عاصف على نفسه من العدوى ويبتعد عنه ولا يزوره في المستشفى حتى يموت ويدفن في مكة. ثم ينسج رواية بطولية عن رعايته لأبيه حتى آخر لحظة، مستغلاً غياب الشهود، ليكون هذا الادعاء أساساً للاستحواذ على الميراث.

عاصف لا يتوقف عند هذا الحد، فهو يكذب على عائلته بطبيعة عمله (يدعي أنه تاجر ومورد كبير، بينما هو في الحقيقة عامل بسيط)، ويرمي أوراق زوج أخته في القمامة خشية انكشاف الحقيقة، ويحتال ليبقي أخته المريضة بالزهايمر في المستشفى أطول فترة ممكنة ليضغط على الدكتور زهران لقبول ابنه في رسالة الماجستير. في كل هذه التصرفات، يظل عاصف في حدود القانون (إلا في واقعة حرمان إخوته من الميراث، والتي هي قانونياً غير جائزة)، لكنه يتجاوز كل حدود المسؤولية الأخلاقية تجاه أهله ومجتمعه. يظهر هنا بوضوح كيف يمكن للقانون أن يكون أداة لحماية التصرفات غير الأخلاقية، وكيف تتحول الوصية التي تركها الأب "لا تبيعوا البيت" إلى وسيلة لحرمان الإخوة من الميراث، لا إلى وسيلة للحفاظ على الذكرى والميراث الروحي.

٦. العدالة الأخلاقية من خلال التبادل: مأمون وفرح في "سلف ودين"

تقدم قصة "سلف ودين" نموذجاً مختلفاً، حيث تطرح ثنائية المسؤولية من خلال منظور العلاقات العاطفية والأسرية. يحكي مأمون لابنته فرح قصة حبه الأول بيلسان، الفتاة اللبنانية التي أحبها في شبابه، والتي رفضها والده بسبب فارق السن واختلاف الأصل. يقرر مأمون الانصياع لرغبة الأب ويتزوج بأخرى، لكنه يعود بعد فسخ الخطبة إلى بيلسان، التي ترفض الزواج وتريد علاقة "جنباً إلى جنب بلا زواج".

هنا تظهر مسؤوليتان متعارضتان: المسؤولية الأخلاقية تجاه خطيبته التي وعدها بالزواج، والمسؤولية تجاه حبه لبيلسان. يقرر مأمون العودة إلى بيلسان، لكنه يكتشف أن علاقتهما كانت "مغامرة" بالنسبة لها، وأنها كانت تبحث عن الدعم النفسي وإعادة الثقة بنفسها. تتحول حكاية الحب الأولى إلى درس في المسؤولية: مأمون يدرك متأخراً أنه "ظلم" خطيبته الأولى بسبب هواه، وأن بيلسان لم تكن تستحق كل هذه التضحية. في كبره، يواجه ابنته بحقيقة أن "الحب أعمى" وأن الرجل هو "الكلمة" التي يرتبط بها.

في مشهد محوري، تطلب فرح من والدها أن يأتي لزيارتها في المركز النفسي الذي تعمل فيه، وهناك يلتقي مأمون ببيلسان بعد سنوات، لتكون مريضة تعالج من الإدمان على المهدئات. الموت هنا يلعب دور "العدالة الأخلاقية": بيلسان التي عذبت مأمون بحبها المشروط، ها هي تعاني من الوحدة والإدمان. مأمون الذي ضحى بحبه الأول من أجل أسرته، يعيش حياة مستقرة مع ابنته الطبيبة التي تملأ حياته. لكن السؤال الأعمق: هل يمكن للقانون أن يحاسب على إيذاء عاطفي كهذا؟ وهل الإدمان على المهدئات عقاب قانوني أم أخلاقي أم قدر؟ القصة تترك الإجابة مفتوحة، لكنها تشير إلى أن العدالة الأخلاقية يمكن أن تتجلى في نتائج طبيعية للتصرفات، بعيداً عن أي تدخل قانوني.

<u>تحليل مقارن لأنماط المسؤولية في المجموعة</u>

تكشف الشخصيات في مجموعة "استروبيا" عن ثلاثة أنماط رئيسية للعلاقة بين المسؤولية الأخلاقية والقانونية:

النمط الأول: الشخصيات التي تلتزم بالحد الأدنى القانوني وتتجاوز الأخلاقي، مثل الشيخ عاصم ومغربي. هؤلاء يستخدمون القانون كدرع لتبرير استغلالهم، ويلجأون إلى الإجراءات الرسمية لحماية مصالحهم، مع إغفال كامل للمسؤولية الأخلاقية تجاه الآخرين.

النمط الثاني: الشخصيات التي تخلط بين الواقع والخيال وتفبرك الحقائق لخدمة صورتها الذاتية، مثل إحسان هانم وعاصف. هؤلاء يمارسون تزيفاً للواقع لا يمكن للقانون ملاحقتهم عليه بالضرورة، لكنه يمثل انتهاكاً للثقة العامة وللمسؤولية الأخلاقية في نشر الحقيقة.

النمط الثالث: الشخصيات التي تدرك المسؤولية الأخلاقية وتتقبل عواقبها، مثل مأمون في نهاية رحلته، ووافي الذي يختار العمل الجاد والمصداقية رغم قلة العائد المادي. هؤلاء يقدمون نموذجاً مضاداً للشخصيات التي تغلب المصالح الشخصية على المبادئ الأخلاقية.

وتتقاطع هذه الأنماط مع ما تشير إليه دراسات القانون والأدب من أن "الأدب يوفر ساحة اختبار للمثل القانونية والأخلاقية"، حيث تعكس كل قصة صراعاً قائماً في المجتمع المصري المعاصر بين قيم أخلاقية تقليدية ومتطلبات قانونية حديثة، بين المسؤولية الفردية والضغوط الاجتماعية، بين الانقياد للقانون والالتزام بالضمير.

خاتمة

تؤكد دراسة شخصيات مجموعة "استروبيا" أن العلاقة بين المسؤولية الأخلاقية والقانونية ليست علاقة تطابق أو تضاد بسيط، بل هي علاقة معقدة تختلف باختلاف السياق والشخصيات والظروف. فالقانون في هذه القصص يظهر كإطار جامد يمكن توظيفه للحماية والاستغلال على حد سواء، بينما تظهر المسؤولية الأخلاقية كمنطقة رمادية مليئة بالتساؤلات والتحديات. كما كشفت الدراسة عن كيفية تجسيد الأدب لإشكاليات المسؤولية التي تلامس الواقع المعاصر، مبرزة الدور النقدي والتأملي للأدب في فضح التناقضات بين المبادئ والممارسات. وقد أظهرت الشخصيات التي تمرّ بتجارب الخسارة والفشل كيف يمكن للأقدار أن تكون بمثابة عدالة أخلاقية، بينما تظل الشخصيات التي تتمسك بالمبادئ، على الرغم من خسائرها، أكثر اتزاناً وإنسانية. وفي النهاية، تقدم المجموعة القصصية "استروبيا" رؤية متكاملة لتوتر أساسي في الحياة المعاصرة: كيف يمكن للإنسان أن يعيش في عالم تتصادم فيه متطلبات القانون مع نداءات الضمير، ومتى تكون المسؤولية الأخلاقية أعلى من المسؤولية القانونية، وكيف يمكن للفرد أن يتحمل تبعات اختياراته في ظل غياب رقابة خارجية.

المراجع

Polloczek, Dieter. Literature and Legal Discourse: Equity and Ethics from Sterne to .Conrad. Cambridge University Press, 1999

Elton, W. R. "Aristotle's Nicomachean Ethics and Shakespeare's Troilus and Cressida." .PhilPapers

Floyd, Riley H. "I Must Tell the Whole World: Septimus Smith as Virginia Woolf's Legal .Messenger." Indiana Law Journal, vol. 91, no. 4, 2016

Visconti, Arianna. "«Con quale viso ci staremmo a fronte?» Parola, silenzio, responsabilità, giudizio." In L'esercizio del 'giusto giudizio', edited by Gaia Donati et al., .Vita e Pensiero, 2025

عبد العال، محمد فتحي. استروبيا. ديوان العرب للنشر والتوزيع، ٢٠٢٣.

الدراسة الرابعة

نقد "الماضي المثالي" وتأثيره على تطور الفكر السياسي والاجتماعي
دراسة تحليلية في ضوء أرشيف الصحافة العربية عبر كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام"

مقدمة

يمثل كتاب الدكتور محمد فتحي عبد العال "نوستالجيا الواقع والأوهام" محاولة جريئة لكشف الستار عن العلاقة المعقدة بين الماضي والحاضر في الوعي الجمعي المصري. من خلال رحلة موسوعية في أرشيف الصحافة العربية والوثائق التاريخية، يقدم المؤلف نقداً منهجياً لظاهرة "الحنين إلى الماضي" (النوستالجيا) التي تطبع الخطاب الثقافي والسياسي في مصر والعالم العربي.

يتجاوز الكتاب مجرد العرض التاريخي ليصبح أطروحة نقدية تعيد النظر في الموروث الثقافي والسياسي، وتكشف عن وجود فجوة بين الصورة المثالية التي يروجها الخطاب الرسمي والشعبي عن الماضي، وبين حقائقه التاريخية التي تزخر بالتناقضات والإشكاليات.

أولاً: مفهوم النوستالجيا في السياق المصري

١,١ تعريف النوستالجيا وأبعادها النفسية والاجتماعية

يبدأ المؤلف رحلته النقدية بتفكيك ظاهرة النوستالجيا التي وصفها بأنها "حنين إلى ماضٍ لم يكن موجوداً" بتلك المثالية التي نتصوره عليها. يرى الدكتور عبد العال أن النوستالجيا ليست مجرد عاطفة، بل هي "آلية دفاعية" يلجأ إليها المجتمع للهروب من تعقيدات الحاضر ومشاكله.

في الفصل الخاص بـ "السلطان حسين كامل المعلوم والمجهول"، يناقش الكتاب كيف تم بناء صورة مثالية عن العهد الملكي، متناسين الجوانب المظلمة كالاحتلال البريطاني والتفاوت الطبقي الصارخ. يشير المؤلف إلى أن "الحنين إلى الماضي هو أسهل الطرق لتجنب مواجهة مسؤوليات الحاضر".

١,٢ الماضي كأداة شرعية للسلطة

يكشف الكتاب عن آلية توظيف الماضي كأداة شرعية من قبل الأنظمة السياسية المختلفة. في حديثه عن السلطان المملوكي قانصوه الغوري، يوضح كيف كان السلاطين يبحثون عن شرعية حكمهم من خلال نسب أنفسهم إلى العرب أو عبر إحياء الخلافة العباسية بشكل صوري.

يقول المؤلف: "ظل المماليك يبحثون عن شرعيتهم في الماضي، متناسين أن الشرعية الحقيقية تأتي من العدل في الحاضر." هذه النقطة تعكس إشكالية أوسع في الفكر السياسي العربي، حيث يتم التمسك بالماضي كمرجعية وحيدة للشرعية دون مواءمتها مع متطلبات العصر.

ثانياً: الماضي السياسي بين الأسطورة والواقع

٢,١ إسماعيل صدقي: قراءة نقدية للديكتاتورية الواقعية

يخصص المؤلف مساحة كبيرة لمناقشة شخصية إسماعيل صدقي باشا، واصفاً إياه بـ "الديكتاتور الواقعي". هذه الدراسة تعتبر نموذجاً لكشف التناقض بين الصورة النمطية عن رجال السياسة في الماضي، وحقيقتهم المعقدة.

يقدم الكتاب رؤية متوازنة لصدقي، حيث يصفه بـ "الرجل الصريح للغاية في علاقته بأمته ووطنه" لكنه في الوقت نفسه "لا يؤمن بأهلية الأمة للديمقراطية ومباشرة حكم ذاتها". هذا التناقض يكشف عن نمط فكري ساد في مرحلة مهمة من التاريخ المصري، حيث كان السياسيون يؤمنون بـ "السلطة الأبوية" كوسيلة للنهضة.

يقتبس المؤلف من تصريح صدقي لمصطفى أمين وصفه للشعب بأنه "كالطفل الذي يريد أن يلقي بنفسه من النافذة أو كالذي يحب بائع الدندرمة الملوثة". هذا التشبيه يعكس رؤية استعلائية للشعب، وهي رؤية مازالت حاضرة في الخطاب السياسي المعاصر وإن اختلفت صياغتها.

٢,٢ الصراع مع المثقفين: نموذج للتوتر الأبدي
يتناول الكتاب بالتفصيل الصراع بين إسماعيل صدقي والنخبة المثقفة، مسلطاً الضوء على قضايا عباس العقاد وطه حسين. يروي المؤلف أن العقاد سجن تسعة أشهر بتهمة "العيب في الذات الملكية" بسبب تعليقه على رفض قانون محاسبة الوزراء.

قضية العقاد هذه ليست مجرد حادثة فردية، بل تعكس نمطاً متكرراً في العلاقة بين السلطة والمثقفين في التاريخ المصري. يرى المؤلف أن "ثقافة السلطان" التي تحدث عنها في مجالس قانصوه الغوري، استمرت في العصر الحديث بصيغ مختلفة، حيث تصطدم الإرادة الفردية للحاكم بالرؤى النقدية للمثقفين.

٢,٣ النوستالجيا السياسية في خطاب فاروق
في الفصل المخصص للملك فاروق، يقدم المؤلف قراءة نقدية لـ "الليلة الأخيرة" من خلال تحليل مذكرات فاروق. يستعرض الكتاب تناقضات فاروق بين وطنيته الظاهرة التي دفعته لخوض حرب فلسطين، وبين إسرافه وابتعاده عن هموم شعبه.

يكشف المؤلف عن حقائق مثيرة مثل اعتراض فاروق على وثيقة التنازل ليس بسبب عبارة "نزولاً على إرادة الشعب" بل بسبب مخاطبته بـ "ملك مصر" دون السودان. هذه التفاصيل تظهر تعقيد الصورة التي رسمتها النوستالجيا الملكية لفاروق كملك مسكين أطيح به ظلماً.

ثالثاً: الشعب الآخر: تفكيك الصورة النمطية للمجتمع المصري
٣,١ قراءة في مذكرات سليمان نجيب
يمثل الفصل الخاص بـ "الشعب الآخر" نقلة نوعية في منهج الكتاب، حيث ينتقل المؤلف من دراسة النخبة إلى استكشاف حياة الطبقات الشعبية من خلال مذكرات سليمان نجيب التي نشرت تحت اسم مستعار هو "مذكرات عربجي".

يكشف هذا الفصل عن وجود "شعب آخر" يعيش بين جنبات المجتمع المصري بقاموسه الخاص وحبياته ومفرداته المختلفة. يقدم المؤلف صوراً حية عن التحرش اللفظي بالنساء، وعن انتشار القمار والمخدرات (الكوكايين) في المجتمع المصري، وعن الفجوة الثقافية بين الطبقات.

يقول المؤلف متعجباً من الصورة المثالية عن الماضي: "لا تنظر يا عزيزي القارئ للقمار على أنه مجرد لعبة، بل كان في هذه الأزمنة كارثة الكوارث ومرض من الأمراض الدافعة لارتكاب الجرائم." ثم يستشهد بقصة تاجر الغلال بالجيزة الذي ذبح ابنتيه بسبب إدمانه القمار.

٣,٢ ظاهرة النشل والسرقة في المجتمع المصري
من أكثر المقاطع إثارة في الكتاب، ما يتعلق بظاهرة النشل والسرقة التي يصورها البعض كظاهرة حديثة. يكشف المؤلف عن تقارير وزارة الداخلية لعام ١٩٢٧ التي ترصد سرقة فردة ذهب من سيدة في مستشفى جلالة الملك وسط الزحام، وقصة الشيخ محمد النشال الذي قضى ٣٨ سنة في السجن بتهمة سرقة ثلاثة قروش.

هذه الوقائع تعكس استمرارية الظواهر الاجتماعية السلبية عبر الزمن، وتفند فكرة "الزمن الجميل" الخالي من المشكلات. يعلق المؤلف: "لقد ظننت أن هذه الحوادث حديثة... ووجدت العجب العجاب."

٣,٣ أزمة الصحة العامة والفقر
يوثق الكتاب أزمة الصحة العامة في مصر عبر مراحل تاريخية مختلفة، مستنداً إلى كتاب "رسائل مصري لسياسي إنجليزي كبير" الصادر عام ١٩٠٥، وكتاب "حاضر المصريين أو سر تأخرهم" لمحمد عمر.

يكشف المؤلف عن معاناة الفقراء التي استمرت عقوداً: من نقص الإضاءة في القاهرة، إلى انقطاع المياه، إلى انتشار الأمراض بين الأطفال، إلى نقص البروتين في غذائهم. ينقل عن كتاب "التقويمات الصحية على العوائد المصرية" عادات صحية خاطئة كانت سائدة كإطعام الطفل الرضيع كعك العيد الممتلئ بالسمن والسكر، وهي عادة وصفها المؤلف بأنها "سم قاتل".

يقول المؤلف في تعقيب ساخر: "لا تنظر يا عزيزي لفخامة القصور والفلل والشوارع بالصور القديمة على صفحات الفيس بوك التي ترتسم على الزمن الجميل! فجدي وجدك لم يكونا يوماً من ساكنيها."

رابعاً: اللغة وإشكالية التطور الثقافي

٤,١ مشروعات تطوير اللغة العربية

يقدم الكتاب عرضاً تاريخياً لمشروعات تطوير اللغة العربية في العصر الحديث، من خلال استعراض مشروعات كل من عبد العزيز باشا فهمي، وعلي الجارم بك، وأحمد لطفي السيد.

مشروع عبد العزيز باشا فهمي هو الأكثر إثارة للجدل، حيث دعا إلى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، متأثراً بتجربة كمال أتاتورك في تركيا. يخلص المؤلف إلى أن "دعوة عبد العزيز باشا فهمي كانت يمكن أن تنال العناية والدعم الكافيين لو لم يتطرق للمساس بالقرآن".

هذه القضية تعكس إشكالية أعمق في الثقافة العربية: التوتر بين الحفاظ على التراث ومواكبة العصر، بين القداسة الدينية والضرورات العملية.

٤,٢ النشر والطباعة في الماضي

يتناول الكتاب جوانب من حركة النشر في مصر القديمة، كاشفاً عن نظام "النشر على نفقة المؤلف" أو على نفقة "راعي" يتحمل تكاليف الطباعة مقابل نصيب من الأرباح. يروي قصة هدى شعراوي التي طُلب منها طباعة مذكرات والدها أحمد عرابي على نفقتها الخاصة، وقصة المؤلف الذي باع حماره لينشر كتابه.

هذه التفاصيل تعكس الصعوبات المادية التي واجهها المثقفون في الماضي، وتفند فكرة أن الماضي كان "زمن الإبداع المجاني" كما يتصور البعض.

خامساً: الديمقراطية بين المفهوم والإساءة

٥,١ الأبوية والسلطة القبلية

في الفصل المعنون "الديمقراطية بين غياب المفهوم وسوء الاستخدام"، يقدم المؤلف تحليلاً اجتماعياً لظاهرة السلطة الأبوية التي عانت منها المجتمعات العربية، مستشهداً بمفهوم "السلطة الأبوية" الروماني الذي انتقل إلى مصر.

يذكر المؤلف نموذج الأحنف بن قيس التميمي، سيد قومه على الرغم من إعاقته، والذي كان يضرب به المثل في الحلم. يعلق معاصراً: "في عصرنا الحديث تجد هذا النموذج موجوداً والذي يحتفي بأتباعه الكثير وإن تجرأت على انتقاده نالك منهم أشد الوعيد في النقابات المهنية والمصالح الحكومية وحتى في المحيط الأدنى."

هذه المقارنة بين الماضي والحاضر تكشف عن استمرارية أنماط السلطة الأبوية وإن اختلفت مظاهرها.

٥,٢ سوء استخدام الديمقراطية

يخصص المؤلف جزءاً مهماً لمناقشة مظاهر سوء استخدام الديمقراطية، من خلال نموذجين:

النموذج الأول: قصيدة بيرم التونسي في العلاقة التي جمعت الأميرة فائقة وحسين فخري، حيث انتقد الشاعر الأسرتين الملكيتين بأسلوب ساخر "لا يليق حتى وإن كانت قضيتها عادلة".

النموذج الثاني: صحيفة "محارة منيتي" التي أصدرها ضابط مفصول، ووصفها بأنها "جريدة هزلية أسبوعية فكاهية، تشتمل على ضحك ولعب، ومفارقات كوب في كوب".

يخلص المؤلف إلى أن "سلوك الجريدة سواء مع الشيخ أو مع غيره لا يليق حتى وإن كانت قضيتها عادلة؛ فمعالجة قضية لا يأتي بأسلوب يجلب داءً اجتماعياً جديداً، واتباع أسلوب التنمر والسخرية من الناس في المجلات والمسارح والأفلام أضر بالمجتمع على مدار تاريخه ودمر سلوكياته."

سادساً: الماضي التعليمي بين الإشراق والإخفاق

٦,١ عظمة المؤهلات وضعف المخرجات

يستعرض الكتاب بإعجاب مؤهلات واضعي الكتب التعليمية القديمة: "عبد الرحيم خريج جامعتي نوتنجهام ومنشستر" و"محمد غالب خريج جامعة ليون بفرنسا" و"رينيه ورمس أستاذ في الفلسفة وليسانسيه في العلوم ودكتور في الحقوق".

لكن هذا الإعجاب بالمؤهلات يقابله نقد لاذع للمخرجات التعليمية. ينقل المؤلف عن وزير المعارف عام ١٩٥٢ اعترافه بأن "مستوى التعليم دون ما نأمله" وأنه "لن يؤدي إلى تحقيق الآمال التي نعلقها عليه".

يكشف الكتاب عن استمرارية مشكلة التعليم في مصر عبر العصور، من خلال شهادات متتالية: من كتاب "رسائل مصري" عام ١٩٠٥، إلى كتاب آرثر سيسيل ألبورت في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، إلى تصريحات وزراء المعارف في خمسينياته.

٦,٢ نقد منهج الحفظ والتلقين

ينقل المؤلف عن آرثر سيسيل ألبورت نقداً لاذعاً للمنهج التعليمي المصري: "يبدو أن مركز الذاكرة في ذهن الطالب المصري قد نما على حساب قدرته على تحكيم المنطق وكيفية الاستخدام العملي للمعلومة التي استظهرها في ذاكرته العجيبة."

هذا النقد، الذي يعود لسبعينيات القرن الماضي، مازال صالحاً للتطبيق على واقع التعليم المصري اليوم، مما يؤكد إشكالية استمرارية الماضي في الحاضر بشكل سلبي.

سابعاً: الصراعات الأدبية: نقد للآلية الثقافية

٧,١ وسائل الشهرة قديماً

يفرد المؤلف فصلاً بعنوان "أوهام الزخم الأدبي الفريد" لمناقشة الآليات التي استخدمها الأدباء في الماضي للوصول إلى الشهرة، وهي آليات تثير الدهشة لاستمراريتها حتى اليوم:

أولاً: الصعود عبر مهاجمة الكبار. يستشهد بمهاجمة طه حسين لمصطفى لطفي المنفلوطي بتوجيه من الشيخ عبد العزيز جاويش. هذه الظاهرة تعكس استمرار نمط "نقد الكبار للوصول إلى الصدارة" في الأوساط الثقافية العربية.

ثانياً: الإيهام بالشهادات العليا. يخصص المؤلف مساحة مهمة لمناقشة قضية إسماعيل أدهم، الذي ادعى أنه حاصل على الدكتوراه من روسيا، في حين كشفت التحقيقات أنه لم يكن يتقن اللغات التي يدعي الترجمة منها.

ثالثاً: السرقات الأدبية. يستعرض الكتاب بالتفصيل اتهامات السرقة الأدبية التي طالت كبار الأدباء مثل أحمد شوقي، وإبراهيم عبد القادر المازني، وأحمد أمين.

٧,٢ تحليل الظاهرة

يقدم المؤلف تحليلاً نقدياً لهذه الظواهر، مبيناً أنها لم تكن مجرد أخطاء فردية، بل تعكس بنية ثقافية بأكملها كانت تعمل وفق قواعد مختلفة عن تلك التي نتصورها من خلال الصورة المثالية عن "عصر النهضة الأدبية".

يقول المؤلف: "الغرض من هذا المبحث ليس فضح أحد أو كشف سرته... لكن الغرض هو الخروج من عباءة الزمن الجميل والاختزال التجارب الفكرية المصرية في عدة أقلام معدودة وتكوين مدارس فكرية تحت أسمائهم تمارس الوصاية على الإبداع والفكر المعاصر."

ثامناً: الاستنتاجات والخلاصات

٨,١ الماضي ليس زمناً جميلاً بالكامل

يخلص الكتاب إلى فكرة محورية: أن الماضي لم يكن "زمنًا جميلاً" بالمعنى المثالي الذي يروج له الخطاب النوستالجي. بل كان زمناً يعاني من مشكلات مماثلة للمشكلات المعاصرة، وإن اختلفت المسميات والأشكال.

يقول المؤلف في خاتمة الفصل الخاص بحوادث الماضي: "يقولون إن مصر البلد الوحيد الذي لو عاد إلى الماضي لتقدم، والحقيقة أننا البلد الوحيد الذي لم يغادر الماضي."

٨,٢ النوستالجيا كعائق للتقدم

يرى المؤلف أن النوستالجيا المفرطة تشكل عائقاً أمام التقدم، لأنها تمنع المجتمع من رؤية مشكلاته بوضوح، وتشجعه على الهروب إلى ماضٍ وهمي بدلاً من مواجهة تحديات الحاضر.

يقول في المقدمة: "هذا الكتاب هو استمرار لما بدأته في كتابي صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر حول تصحيح حالة المثالية المتعلقة بالماضي ورجالاته."

٨,٣ الحاجة إلى قراءة نقدية للتاريخ

يؤكد الكتاب على أهمية القراءة النقدية للتاريخ، بعيداً عن التقديس أو التجريح. الماضي، كما يقدمه الدكتور عبد العال، ليس حلبة للصراعات الأيديولوجية، بل مادة للدراسة والتحليل، يمكن من خلالها فهم الحاضر واستشراف المستقبل.

تاسعاً: منهجية الكتاب وأسلوبه

٩,١ التنوع المصادر

يمتاز الكتاب بتنوع مصادرها ما بين الكتب التاريخية الكلاسيكية (كبدائع الزهور لابن إياس)، والصحف والمجلات القديمة، والمذكرات الشخصية، والكتب التعليمية، والوثائق الرسمية.

هذا التنوع يمنح الكتاب مصداقية، ويكشف عن جهد بحثي كبير بذله المؤلف على مدى سنوات.

٩,٢ الأسلوب السردي

يتميز أسلوب الدكتور عبد العال بالجمع بين الدقة العلمية والسلاسة الأدبية، مع لمسات من السخرية والتهكم في بعض المواضع، مما يجعل القراءة ممتعة رغم ثقل الموضوعات.

على سبيل المثال، تعليقه على عشاء فاروق الأخير: "أعطني عقلك، رجل بدين يعاني من الضغط وارتفاع الكوليسترول يأكل بهذه الشراهة لكل هذه الكميات من الأطعمة وبوجبة واحدة، هل بحاجة لعملية اغتيال أم الانتظار أن يقتله الطعام بشكل طبيعي؟!"

٩,٣ النقد الذاتي

يظهر المؤلف وعياً نقدياً ذاتياً، فهو لا يقدم نفسه كحامل للحقيقة المطلقة، بل كباحث يقدم رؤيته ويحاول إثارة الأسئلة. هذا التواضع المعرفي يعزز مصداقية الكتاب.

يقول في موضع ما: "أنا عن علاقة فاروق بزوجته ناريمان، فالواضح أنه ظل يراهن حتى اللحظة الأخيرة على وفاء ناريمان له وعدم تخليها عنه تحت أي ظرف ولكن الوقت كان مبكراً لتقرير ذلك وقد خان الملك حدسه هذه المرة."

خاتمة

يمثل كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" إضافة نوعية للمكتبة التاريخية والثقافية العربية، من خلال منهجه النقدي في تفكيك ظاهرة النوستالجيا التي تسيطر على الخطاب الثقافي والسياسي العربي.

الدكتور محمد فتحي عبد العال، بحكم تكوينه العلمي (صيدلي، ومتخصص في الميكروبيولوجي والكيمياء الحيوية، مع دبلوم في الدراسات الإسلامية) يقدم قراءة متعددة التخصصات للتاريخ، تجمع بين الدقة العلمية والرؤية النقدية.

الكتاب دعوة صريحة للتخلي عن "مثالية الماضي الواهم" والاعتماد على سواعدنا كالأمم الناشئة التي لا تاريخ لها، فالنهضة الحقيقية تبدأ من الاعتراف بمشكلات الحاضر والعمل على حلها، لا من الهروب إلى ماضٍ لم يكن بتلك المثالية التي نتصوره عليها.

كما يقول الملك فؤاد الأول في الاقتباس الذي افتتح به المؤلف كتابه: "لا يرقو شعب ما سر مستقبله قبل أن يتنبه شعور الاحترام فيه لمآتي أجداده ويدرك مآثر أبطاله فهنا وهنا فقط يستطيع أن يبلغ ذروة الرقي."

لكن الدكتور عبد العال يضيف بعداً نقدياً لهذا التصور: احترام الماضي لا يعني تقديسه، ومعرفة مآثر الأبطال لا تعني تجاهل عيوبهم وهفواتهم. فقط من خلال هذه القراءة المتوازنة يمكن للمجتمع أن "يبلغ ذروة الرقي".

قائمة المصادر والمراجع الرئيسية في الكتاب

كتاب إسماعيل باشا صدق للدكتور محمد محمد الجوادي

كتاب مذكرات إسماعيل صدق باشا

بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي

نفائس المجالس السلطانية في حقائق الأسرار القرآنية

الكوكب الدري في مسائل الغوري

مذكرات إسماعيل صدق

كتاب الأيام لطه حسين

كتاب في صالون العقاد كانت لنا أيام لأنيس منصور

كتاب خطى مشيناها لعباس خضر

كتاب حاضر المصريين أو سر تأخرهم لمحمد عمر

كتاب رسائل مصري لسياسي إنجليزي كبير (١٩٠٥)

كتاب ساعة عدل واحدة.. الكتاب الأسود عن أحوال المستشفيات المصرية لآرثر سيسيل ألبورت

كتاب التقويمات الصحية على العوائد المصرية للدكتور عبد الرحمن إسماعيل

رجل الدولة
السلام
الوطني
الوعي
رجل الدولة

الدراسة الخامسة

بين الحقيقة التاريخية والوهم الشعبي: دراسة تحليلية لتصحيح المفاهيم في مرآة الصحافة والإعلام العربي من خلال كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" للدكتور محمد فتحي عبد العال

المقدمة: تفكيك "الزمن الجميل"

يأتي كتاب "نوستالجيا الواقع والأوهام" للدكتور محمد فتحي عبد العال كعمل تاريخي نقدي بامتياز، يهدف إلى تفكيك النظرة الحنينية (النوستالجية) التي يكتنفها الماضي، خاصة في المخيال الشعبي العربي والمصري. لا يكتفي الكتاب بسرد الأحداث، بل يسعى إلى "تصحيح حالة المثالية المتعلقة بالماضي ورجالاته"، كما يوضح المؤلف في مقدمته. يقوم هذا التصحيح على مواجهة "الوهم" بالـ"واقع" من خلال استنطاق مصادر تاريخية متنوعة، وعلى رأسها الصحافة والإعلام القديم، ليقدم للقارئ صورة أكثر دقة وتركيباً، بل وأكثر قسوة في كثير من الأحيان، عن عصور كانت تُعتبر "ذهبية".

يكمن جوهر الكتاب في كشف الفجوة بين السرديات الرسمية والشعبية المثالية، وبين الحقائق اليومية المهمشة التي عاشها الناس العاديون، والتي تُظهر استمرارية التحديات والمشكلات الاجتماعية والسياسية. يستخدم الكاتب الصحافة كمرآة لهذه الحقائق، معتبراً إياها سجلاً يومياً ينبض بالحياة، بعيداً عن التنميق الذي قد تطغى عليه الكتب التاريخية الرسمية.

أولاً: الحقيقة التاريخية كما يراها الكاتب: منهجية "التفكيك"

يعتمد الدكتور فتحي عبد العال منهجية واضحة في تقصي الحقيقة التاريخية، تقوم على عدة ركائز:

نقد الشخصيات والرموز: لا يتردد الكاتب في نقد الشخصيات السياسية والفكرية الكبيرة، متجاوزاً هالاتها المثالية. فهو يناقش ديكتاتورية "إسماعيل باشا صدقي" و"واقعيته" التي تجاهلت الشعب، ويكشف عن بشاعة "السطان الغوري" وجهل رجال السلطة الديني والثقافي، ويسلط الضوء على تناقضات "الملك فاروق" وهشاشة عرشه، ويناقش صراعات وفساد قادة "مثل النحاس ومكرم عبيد". هذا النقد يُعيد تشكيل الفهم التقليدي لهذه الشخصيات.

العودة إلى المصادر الأولية: يحشد الكاتب ثروة من المصادر الأولية، وخاصة الصحف والمجلات القديمة. فالكتاب يزخر باقتباسات من "الأهرام"، "روز اليوسف"، "الكشكول"، "المصور"، "اللطائف المصورة"، وغيرها. هذه المصادر هي مرآة الحقيقة بالنسبة له؛ فهي تعكس الأحداث كما وثقتها الصحافة حين وقوعها، متضمنة تفاصيل الحياة اليومية والجرائم والفساد والصراعات التي قد تُطمس في السرد التاريخي اللاحق.

الإصغاء إلى "الشعب الآخر": أحد أهم ملامح منهجيته هو إعطاء مساحة للطبقات المهمشة والعادية. من خلال مذكرات "العربجي" أو كتب "حاضر المصريين"، يقدم الكاتب صورة من الأسفل للمجتمع، تُظهر هموم الناس اليومية (مثل الخوف من النشالين، الفقر المدقع، الجهل بالصحة، تفشي القمار والمخدرات) التي كانت أيضاً في ذلك الزمن، مما يكسر الصورة النمطية عن مجتمع الماضي الراقي والمستقر.

الموضوعية مع الرؤية النقدية: لا يكتفي الكاتب بجمع المعلومات؛ بل يقوم بتحليلها ومقارنتها، ويطرح تساؤلات حول صحة الروايات (مثل الشكوك حول أسباب تنازل الأمير كمال الدين حسين أو ظروف وفاة رفعت باشا)، ويضيف استنتاجاته وربطه بالحاضر. هذا التجاذب بين السرد الموضوعي والرؤية النقدية يمنح الكتاب عمقه المعرفي.

ثانياً: الوهم الشعبي ونوستالجيا الماضي: آليات التشكيل والتضليل

يرصد الكتاب عدة آليات ساهمت في تشكيل ذلك الوهم الشعبي بالماضي، وهي:

السرديات الرسمية والدعائية: يكشف الكاتب كيف استخدمت السلطات الصحافة لخلق هالات مثالية حول الملوك والحكام. فالصحافة الدعائية في عهد فاروق كانت "إما تختلق أخباراً أو توظف أخرى بشكل ساذج" كالإعلان عن اصطياده ٣٤٤ بطة،

أو لمسة الشفاء من مجرد نزوله ليطهي الملوخية. هذه الدعاية السطحية خلقت، في بعض الأذهان، صورة رومانسية مبتورة عن الملك وعلاقته بالشعب، بينما حجبته عن واقعه المفكك.

التناقض بين الإنجازات والواقع المعيش: كان بناء المشروعات الضخمة مثل (كوبري قصر النيل) أو (سد جبل الأولياء) يُقدّم كدليل على التقدم، بينما يعيش عامة الشعب في فقر مدقع. يشير الكاتب إلى الانتقادات اللاذعة التي وجهها كاتب رسائل عام ١٩٠٥ لهذه السياسة، منتقداً بناء المتاحف الفخمة وقصور الحيوانات بينما "الناس في بيوت لا سقوف لها". هذا التناقض بين واجهة التقدم الحضاري وجوهر التخلف الاجتماعي هو مصدر رئيسي للوهم.

الحنين إلى الاستقرار مقابل نسيان القهر: يحن الكثيرون إلى العهد الملكي، معتبرين إياه عصراً من الاستقرار، لكن الكتاب يكشف أن هذا الاستقرار كان استقرار القهر. فالسلطة كانت أبوية حديدية (كما عند صدقي)، والحقوق الأساسية للشعب (الصحة، التعليم، الكرامة) كانت غائبة. النوستالجيا هنا تختار استقرار النظام الأبوي، وتتغاضى عن غياب العدالة الاجتماعية والسياسية.

تغذية الفردية والشهرة على حساب الجوهر: يناقش الكاتب في فصل "أوهام الزخم الأدبي الفريد" كيف ساهم الأدباء والصحفيون في خلق أوهام حول مكانتهم. فأساليب الشهرة (كمهاجمة الكبار، التوقيع بأسماء مستعارة، الادعاء بمعرفة كبار المفكرين، السرقات الأدبية) كلها كانت تخلق "زخماً أدبياً" ووهماً حول حجم وصدق الحراك الفكري، مشغلةً الرأي العام عن قضايا أكثر عمقاً.

ثالثاً: الصحافة والإعلام كمرآة للواقع ومصدر لتصحيح الأوهام

يمثل توظيف الدكتور عبد العال للصحافة القديمة العنصر الأكثر إبداعاً في منهجيته، حيث يمنح الصحافة دوراً محورياً في المشروع النقدي للكتاب:

المرآة المعكوسة: الصحافة في هذا الكتاب هي العكس الكامل للدعاية الرسمية. فهي التي تُظهر سقف العمارات المتهدم، وتكشف عن صفقات الفساد، وتوثق جرائم النشل والغش الطبي، وتسجل الإهمال الصحي والفقاعات الدعائية للسلع الضارة. إنها "المرآة" التي تعكس تشوهات المجتمع التي أرادت السلطة إخفاءها.

سجل الكوارث المستمرة: من خلال الصحافة، يثبت الكاتب استمرارية القضايا الاجتماعية. فمشكلة وفيات الأطفال مثلاً، التي تطرق لها كتاب عام ١٩٠٢ ورسم كاريكاتوري عام ١٩٢٧، لا تزال قائمة في دراسة طبية لاحقة (١٩٣٧-١٩٤٣). هذا التتابع الزمني الذي توفره الصحافة يكشف أن هذه ليست مشكلات عابرة، بل أمراض مزمنة في المجتمع، ويصبح الحنين إلى زمن كانت فيه هذه المشاكل موجودة هو الوهم بعينه.

لغة الحياة اليومية: إيراد الكاتب لنصوص صحفية عن جرائم غريبة (كقضية بيع زوجة مقابل حمار أو قضية اللحية)، أو عن تركيبات أدوية غامضة (كالفسفورين)، أو عن إعلانات خادعة (كمدح البيرة والتدخين)، كلها تنقل القارئ من عالم التاريخ النظري إلى حياة الناس المادية والملموسة، لتصحيح الصورة النمطية عن "آداب" و"رقي" تلك الفترة.

الخاتمة: الكتاب كمرآة للحاضر والمستقبل

في خاتمة المطاف، يخرج القارئ من "نوستالجيا الواقع والأوهام" بفهم عميق مفاده أن التاريخ ليس مجرد مخزون من الفخر أو الحنين، بل هو أيضاً سجل للأخطاء والمشكلات التي مازلنا نعاني منها. وهم الماضي المثالي هو ما يمنعنا من مواجهة حاضرنا بوعي، وفقاً لرؤية الكاتب.

الكتاب هو درس في نقد المصادر، ودعوة لقراءة التاريخ من زوايا متعددة، خاصة من خلال عدسة الصحافة والإعلام التي تعكس، برغم تحيزاتها، حياة الناس اليومية. بهذه الطريقة، لا يصبح "تصحيح المفاهيم" مجرد عملية أكاديمية، بل أداة للوعي الذاتي، وكسر لحاجز الاغتراب بين جيل الحاضر وتراثه السياسي والاجتماعي، وفتح الطريق لفهم كيف يمكن للماضي أن يكون نواة لمستقبل أفضل، ليس بالعودة إليه، بل بتجاوز أوهامه وأخطائه.

الدراسة السادسة

الجرائم والمظاهر الجنائية في مرآة الصحافة التاريخية: دراسة تحليلية للسياسة العقابية وتطورها المجتمعي

مقدمة

يمثل كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" للدكتور محمد فتحي عبد العال وثيقة تاريخية فريدة، تعيد تشكيل ملامح المجتمع المصري عبر قراءة متأنية في أرشيف الصحافة المصرية خلال النصف الأول من القرن العشرين. يأتي هذا البحث ليحلل السياسة العقابية وتطورها المجتمعي من خلال الوقائع الجنائية التي سجلتها صحافة ذلك الزمان، متجاوزًا السرد التاريخي التقليدي إلى تحليل نقدي للعلاقة بين الجريمة والعقاب والسياق الاجتماعي والثقافي الذي يشكلهما.

يكتسب هذا البحث أهميته من كونه ينطلق من وثائق صحفية حية، تعكس الواقع كما عاشه المصريون في تلك الحقبة، بعيدًا عن التنظير المجرد. إن الجرائم التي رصدتها الصحافة، والطرق التي عولجت بها، والأحكام الصادرة فيها، والتفاعلات المجتمعية حولها، كلها تشكل نسيجًا معقدًا يكشف عن تطور الوعي الجنائي والعقابي في المجتمع المصري.

الإطار النظري: الجريمة والعقاب في السياق التاريخي

تتأسس مقاربتنا لفهم الظاهرة الجنائية في هذه الحقبة على ثلاثة محاور رئيسية:

المحور الأول: الجريمة كمنتج اجتماعي - حيث لا يمكن فهم الجريمة بمعزل عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تنتجها. فقد كشفت الصحف عن علاقة وثيقة بين الفقر والبطالة وانتشار أنواع معينة من الجرائم، خاصة جرائم السرقة والنشل. كما أظهرت كيف أن التحولات الاقتصادية والاجتماعية، كالحروب والأزمات المالية، كانت تنعكس مباشرة على أنماط الجريمة وطرق ارتكابها.

المحور الثاني: العقاب كآلية للضبط الاجتماعي - لم يكن نظام العقاب في تلك الحقبة مجرد تطبيق للقوانين، بل كان يعكس توترات اجتماعية أعمق. فالتمييز في تطبيق العقوبات بين الفقراء والأغنياء، وبين المصريين والأجانب، وبين الرجال والنساء، يكشف عن بنية السلطة والهيمنة في المجتمع المصري. كما أن تطور المؤسسات العقابية من السجون التقليدية إلى مستشفيات المجانين وغيرها من المؤسسات الحديثة، يعكس تحولًا في فهم الجريمة من فعل فردي يحتاج إلى عقاب إلى ظاهرة اجتماعية تحتاج إلى معالجة.

المحور الثالث: الصحافة كمرآة للوعي الجنائي - لعبت الصحافة في تلك الحقبة دورًا مزدوجًا: فهي من ناحية كانت تنقل وقائع الجرائم والأحكام، ومن ناحية أخرى كانت تشكل الوعي الجماهيري حول الجريمة والعقاب. وقد أظهرت دراسة النصوص الصحفية تطورًا في الخطاب الجنائي من السرد الإخباري البسيط إلى التحليل النقدي، ومن التغطية الإثارة إلى المقاربة الاجتماعية، مما يعكس تحولًا في دور الصحافة كأداة للرقابة الاجتماعية والإصلاح.

أنواع الجرائم ودلالاتها الاجتماعية

أولاً: جرائم القتل - بين العاطفة والفقر والصراع الطبقي

تعد جرائم القتل من أكثر الجرائم التي حظيت باهتمام الصحافة، وكشفت تفاصيلها عن تعقيدات الحياة الاجتماعية في تلك الحقبة. يمكن تصنيف جرائم القتل التي رصدها الكتاب إلى عدة أنماط:

جرائم القتل العاطفية - مثل قضية فاطمة هانم كريمة حسن بك صبيح المتهمة بدس السم لزوجها، حيث كشفت حيثيات القضية عن صراعات داخل الأسرة، وعلاقات زوجية متوترة، وأبعادًا اقتصادية واجتماعية معقدة. فالقضية لم تكن مجرد جريمة قتل، بل كانت مسرحًا لصراع طبقي ونوعي، حيث تتهم الزوجة الغنية بقتل زوجها الثري، وتثير تساؤلات حول علاقة المرأة بالمال والسلطة في المجتمع المصري آنذاك. الأهم من ذلك، أن طريقة تناول الصحافة للقضية كشفت عن موقف المجتمع من المرأة

المتهمة، وكيف أن اتهامها بالسحر والسحر ارتبط باتهامها بالسم، مما يعكس تداخل المفاهيم الجنائية مع المعتقدات الثقافية والدينية.

جرائم القتل المرتبطة بالصراع الطبقي - مثل قضية فلاح حاول قتل زوجته عدة مرات، والتي كشفت عن علاقات القوة داخل الأسرة الريفية. ففي هذه القضية، لم يكن الدافع مجرد خيانة زوجية، بل كان تعبيرًا عن صراع حول السلطة والهيمنة، حيث حاول الرجل استخدام العنف لإعادة تأكيد سيطرته على زوجته التي بدأت تخرج عن طاعته. هذه الجرائم تظهر كيف أن الهياكل الاجتماعية التقليدية، التي كانت تمنح الرجل سلطة شبه مطلقة على المرأة، كانت تنتج أنواعًا معينة من العنف.

جرائم القتل الاقتصادية - مثل قضية يلُع جاد الله الذي قتل جاره دميان مسيحة، وكيل مكتب بريد صول، للحصول على مفتاح خزينة البريد وسرقة ٧٠٠ جنيه. هذه الجريمة تكشف عن بُعد اقتصادي واضح، حيث يدفع الفقر والحاجة إلى اقتراف جرائم القتل من أجل المال. لكن القضية لا تخلو أيضًا من أبعاد اجتماعية طائفية، حيث يقتل فلاح مسلم جاره القبطي، مما يثير تساؤلات حول العلاقات بين الطوائف في الريف المصري. كما أن محاولة القاتل إلقاء اللوم على العمدة وبعض الأهالي، وادعائه الجنون، تكشف عن فهمه لآليات العدالة، واستعداده لاستغلال الثغرات القانونية والاجتماعية للنجاة من العقاب.

القتل المرتبط بالثأر والصراعات العائلية - وهي ظاهرة كانت شائعة في صعيد مصر، حيث تسلط الصحافة الضوء على جرائم القتل التي تنشأ عن خلافات عائلية أو ثارات قبلية. هذه الجرائم تعكس بنية اجتماعية تقوم على الولاء القبلي والعائلي، وتظهر كيف أن العدالة الخاصة (الثأر) كانت تتنافس مع العدالة الرسمية، وكيف أن الدولة كانت تسعى لتأكيد سيطرتها على هذه المناطق من خلال تطبيق العقوبات الرادعة.

ثانيًا: جرائم السرقة والنشل - اقتصاد الفقر والأزمة الأخلاقية

تعتبر جرائم السرقة والنشل من أكثر الجرائم انتشارًا في المجتمع المصري خلال تلك الحقبة، وهي تعكس بوضوح أزمة اقتصادية واجتماعية عميقة. يمكن تحليل هذه الجرائم على عدة مستويات:

النشل كظاهرة اجتماعية - كانت جرائم النشل تمثل مهنة حقيقية لبعض الفئات، مع وجود "نقابة" للنشالين، كما تشير الصحف، وحتى وجود حالات تضامن أخلاقي، مثل توقف النشالين عن العمل أثناء ثورة ١٩١٩. هذه الظاهرة تشير إلى وجود قواعد وقيم داخل الجماعات الإجرامية، بل وإلى شعور بمسؤولية اجتماعية، مما يعقد الصورة النمطية للجريمة. كما أن قصة النشال الذي سرق محفظة موظف، ثم أعادها بعد أن قرأ خطابًا من والده، تكشف عن حضور للضمير الأخلاقي حتى في أوساط المجرمين، وتثير تساؤلات حول كيفية فهم السلوك الإجرامي وعلاقته بالظروف الاجتماعية.

السرقات الكبرى واختلاسات الموظفين - كشفت الصحف عن حالات اختلاس كبيرة من قبل موظفين عموميين، مثل قضية إبراهيم بك مهدي أمين صندوق الدين العمومي، والتي انتهت بانتحاره. هذه القضية نموذجية لفهم العلاقة بين الوظيفة العامة والفساد، وكيف أن الموظف الذي قضى أربعين عامًا في الخدمة، وتمتع بثقة الجميع، يمكن أن ينهار سريعًا تحت ضغط الفساد. كما أن طريقة تعامل المؤسسات المالية مع هذه القضايا تكشف عن ثقافة الفساد المؤسسي، حيث كان الموظف الكبير يُعامَل بتساهل أكبر من الموظف الصغير.

سرقة المواشي والمنتجات الزراعية - وهي جرائم كانت شائعة في الريف المصري، وتعكس صراعًا حول الموارد الاقتصادية، وأيضًا ضعف قدرة الدولة على فرض سيطرتها على المناطق الريفية النائية.

ثالثًا: جرائم الاحتيال والنصب - الثقة والغش في المجتمع المصري

تظهر جرائم الاحتيال بصور متعددة في الصحف، وتكشف عن مستويات مختلفة من الثقة والغش في المجتمع المصري:

الاحتيال على الأفراد - من خلال انتحال الشخصيات، مثل قضية جورج عيسى عيسو الذي ادعى أنه أمير من أسرة مالكة بمراكش، ونصب على أصحاب الفنادق والمحلات. هذه القضية تُظهر مدى سذاجة البعض، ورغبتهم في التعامل مع الطبقات العليا، وكيف أن الطموح الاجتماعي يمكن أن يجعل الشخص فريسة سهلة للمحتالين.

الاحتيال المؤسسي - تزوير العملات والأوراق المالية، مثل قضية تزوير بنكنوت البنك الأهلي، والتي شارك فيها موظف بمصلحة المساحة، مما يشير إلى استغلال المعرفة التقنية لأغراض إجرامية، ويدل على ضعف الرقابة المؤسسية.

الاحتيال بالهاتف - في قضية فريدة، حيث استغل محتال معرفته بتحويل حوالة مالية، وانتحل شخصية صاحبها، فاستلم المبلغ من الساعي. هذه القضية تعكس كيف أن التكنولوجيا الحديثة، حتى في مراحلها المبكرة، خلقت فرصًا جديدة للجريمة، كما تعكس ثقافة الثقة العمياء أحيانًا في التعاملات المالية.

رابعًا: جرائم المخدرات - من الفقراء إلى الأغنياء

تشكل جرائم المخدرات مادة خصبة لفهم تطور السياسة العقابية في مصر، حيث كشفت الصحف عن تحول مهم: انتقال تعاطي الحشيش من الطبقات الفقيرة إلى الطبقات الغنية بعد حرب فلسطين. هذا التحول يعكس تغيرًا في الأوضاع الاجتماعية والنفسية للمجتمع المصري بعد الهزيمة، كما يوضح كيف أن الأزمات الوطنية تخلق بيئة خصبة لانتشار الآفات الاجتماعية.

كما أظهرت القضايا المعروضة في الكتاب ظاهرة أخرى مهمة، وهي تخفيف العقوبات على بعض المتهمين بحجة حاجتهم للمخدرات لأسباب طبية، مما يطرح تساؤلات حول مدى مرونة القضاء، وحول العلاقة بين القانون والطب، والشفقة الاجتماعية التي تظهر أحيانًا تجاه المدمنين من الطبقات العليا مقارنة بالفقراء.

خامسًا: جرائم الاتجار بالبشر والدعارة

تبرز هذه الجرائم بأشكال مختلفة في الكتاب، وتكشف عن بنية اجتماعية معقدة:

الاتجار بالنساء والفتيات القاصرات - حيث كانت هناك "إمبراطورية بغاء" تقودها سبع نساء موسرات، يستغلن فتيات قاصرات خادمات. هذه الظاهرة تكشف عن استغلال الفقر واليتم، وعن تحول بعض النساء إلى أدوات لاستغلال أخريات من جنسهن، وعن تواطؤ المؤسسات الأمنية أحيانًا في هذه العمليات.

ظاهرة "الرقيق الأبيض" - حيث يتم تصدير النساء المصريات للخليج عن طريق الزواج المؤقت. هذه الظاهرة التي بدأ الكاتب يلاحظها في عمله كمندوب دعاية، ثم اكتشف جذورها التاريخية عبر الصحف القديمة، تكشف عن بعد دولي للجريمة، وعن استمرار ظاهرة استغلال النساء عبر الحدود رغم التغيرات القانونية والاجتماعية.

السياسة العقابية: بين القانون والمجتمع

أولاً: تطور المؤسسات العقابية

يقدم الكتاب صورة متكاملة عن المؤسسات العقابية في تلك الحقبة، وتطورها من مجرد سجون تقليدية إلى منظومة أكثر تعقيدًا:

السجون التقليدية - كانت السجون في بداية القرن العشرين أماكن للعقاب والإذلال، وليس للإصلاح. الصحف تنقل صورًا عن ظروف الاعتقال القاسية، وخاصة للفقراء والمهمشين، وكيف أن المعتقلين كانوا يخضعون لأشكال مختلفة من الإذلال الجسدي والنفسي.

مستشفيات المجانين - قضية الطبيب علي عبد السلام، الذي قضى عشر سنوات في مستشفى الأمراض العقلية، تبرز تناقضًا مأساويًا: استخدام المؤسسة الطبية كأداة عقابية للتخلص من المزعجين، رغم ادعاء التقدم العلمي والطبي. هذه القضية تكشف عن فجوة بين الخطاب الطبي الحديث (الذي يمثله تشخيص البارانويا) والممارسة الفعلية (قضاء شخص سليم في المستشفى لمجرد أنه كان مزعجًا للسلطة)، وتطرح تساؤلات حول مدى تقدم السياسة العقابية في مصر.

الإصلاحيات والمؤسسات التأهيلية - كانت هناك محاولات لإصلاح المجرمين وإعادة تأهيلهم، خاصة في قضايا المخدرات، لكن هذه المحاولات كانت محدودة وغير فعالة.

ثانيًا: التمييز في تطبيق العقوبات
يكشف الكتاب عن تمييز واضح في تطبيق العقوبات حسب الطبقة الاجتماعية، والجنس، والانتماء الديني:

التمييز الطبقي - الأغنياء وكبار الموظفين كانوا يتلقون معاملة أفضل من الفقراء، ويجدون طرقًا للتهرب من العقوبات أو تخفيفها. قضية إبراهيم بك مهدي التي انتهت بالانتحار بدلاً من السجن، تعكس كيف أن الموظف الكبير كان يُمنَح فرصًا للتسوية لا تُمنَح للفقراء.

التمييز الجندري - النساء في القضايا الجنائية كن يُعاملن بإزدواجية: تارة بالقسوة، وتارة بالشفقة الأبوية. الصحف كانت تبرز أحيانًا جوانب عاطفية في قضايا النساء، مما كان يؤثر على الأحكام الصادرة ضدهن.

التمييز الطائفي - القضايا التي تنطوي على أطراف من طوائف مختلفة كانت تحظى باهتمام خاص، وكانت الأحكام تعكس أحيانًا تحيزات طائفية.

ثالثًا: دور الرأي العام في تشكيل السياسة العقابية
لعبت الصحافة دورًا مهمًا في تشكيل الرأي العام حول الجريمة والعقاب:

تأثير الصحافة على الأحكام - بعض القضايا التي حظيت بتغطية صحفية واسعة، خاصة تلك التي تمس مشاعر الجمهور أو شخصيات بارزة، كانت تشهد تدخلات من السلطة أو تغيرًا في مسار الأحكام.

الصحافة كصوت للرأي العام - كانت الصحف تعبر عن مطالب الجمهور بالعدالة، أو أحيانًا عن غضبهم من تساهل القضاء مع بعض المجرمين.

الصحافة كمنصة للإصلاح - قدمت الصحف اقتراحات لإصلاح النظام العقابي، مثل الدعوة لتطوير قوانين المخدرات، وتحسين ظروف السجون، وإنشاء إصلاحيات للمدمنين.

الحوادث والقضايا بين القدر والمسؤولية
يطرح الكتاب إشكالية مهمة عن الحدود بين الحوادث المقدرة (التي لا يد للبشر فيها) والحوادث التي تنتج عن إهمال أو تقصير، مما له علاقة مباشرة بالسياسة العقابية.

حوادث النقل والمواصلات - تكرار حوادث الترامواي، والتي كان بعضها نتيجة الإهمال والتقصير، بينما البعض الآخر كانت حوادث قدرية. الصحافة كانت تسلط الضوء على هذه الحوادث للمطالبة بتحسين الخدمات وتطوير البنية التحتية، مما يمكن اعتباره شكلاً من أشكال "المساءلة المجتمعية" غير القانونية.

حوادث السقوط والانهيارات - مثل قضية سقوط الموظفين من شقة حديثة البناء بسبب هشاشة المباني، مما يطرح تساؤلات حول رقابة البناء، ومسؤولية الدولة والمقاولين عن سلامة المواطنين. هذه الحوادث تظهر كيف أن الإهمال في الأعمال المدنية يمكن أن يتحول إلى مسألة جنائية.

الغرق والحوادث النيلية - حوادث غرق العبارات والقوارب في النيل، والتي كانت تودي بحياة العشرات، أثارت تساؤلات حول تنظيم الملاحة النهرية وسلامة النقل.

الجريمة والمرأة في المجتمع المصري
تقدم دراسة القضايا الجنائية في الصحف التاريخية صورة معقدة عن وضع المرأة في المجتمع المصري:

المرأة كضحية - كانت النساء ضحايا لأنواع متعددة من العنف: القتل، الاختطاف، الاتجار، الاستغلال الجنسي. قضية الفتاة علية أحمد خليل، التي اتهم أبوها بقتلها، تكشف عن صورة مرعبة للعنف الأسري، وكيف أن الأب يمكن أن يستخدم سلطته التقليدية لإيذاء ابنته.

المرأة كجانية - أحيانًا كانت المرأة ترتكب جرائم، خاصة جرائم القتل العاطفي أو جرائم الانتقام من الزوج المستبد. لكن الصحف كانت تميل إلى تقديم صورة نمطية عن المرأة الجانية، فتصورها أحيانًا على أنها ضحية ظروفها، أو على أنها شريرة بفطرتها.

المرأة كقوة اجتماعية - في بعض الأحيان، كانت النساء يلعبن دورًا اجتماعيًا إيجابيًا في مواجهة الجريمة، من خلال المشاركة في الأعمال الخيرية، أو التطوع في المستشفيات، أو محاربة الظواهر الاجتماعية السلبية.

الجريمة والفساد المؤسسي

يكشف الكتاب عن علاقة وثيقة بين الجريمة والفساد المؤسسي، وكيف أن المؤسسات الحكومية والمالية كانت في بعض الأحيان جزءًا من المشكلة وليس الحل:

فساد الموظفين العموميين - كانت جرائم اختلاس أموال الدولة ورشوة الموظفين شائعة، خاصة في المؤسسات المالية والبنوك. قضايا مثل قضية أحمد سالم وزوجته أمينة البارودي في قضية الخوذات المزيفة، تعكس كيف أن الموظفين كانوا يستغلون مناصبهم لتحقيق مكاسب شخصية.

تواطؤ المؤسسات مع الجريمة - أحيانًا كانت المؤسسات الأمنية نفسها متورطة في الفساد، إما بالتغاضي عن الجرائم أو بالمشاركة فيها. كما أن وجود رجال بوليس متورطين في قضايا المخدرات يطرح إشكالية حول مدى فساد المؤسسة الأمنية في تلك الحقبة.

الفساد في القضاء - بعض القضايا تطرح تساؤلات حول حيادية القضاء، خاصة عندما تكون أطراف القضية من الشخصيات البارزة أو المؤثرة.

التأثيرات الدولية على السياسة العقابية المصرية
كانت السياسة العقابية المصرية في تلك الحقبة تتأثر بعوامل دولية متعددة:

الاحتلال البريطاني - كان البريطانيون يلعبون دورًا في تشكيل النظام القضائي المصري، وأحيانًا كانوا يتدخلون مباشرة في قضايا معينة. كما كانت القوانين المصرية تتأثر بالنموذج البريطاني، خاصة في مجال المخدرات والجرائم المنظمة.

التأثيرات الأوروبية الحديثة - كانت هناك محاولات لتطوير النظام القضائي والعقابي المصري وفق النماذج الأوروبية، سواء في مجال السجون أو الإصلاحيات أو مستشفيات الأمراض العقلية.

القضايا الدولية - بعض القضايا، مثل قضية الرقيق الأبيض والاتجار بالنساء، كانت لها أبعاد دولية، وتتطلب تعاونًا بين الدول للتصدي لها.

تطور المفاهيم الجنائية والعقابية

يكشف الكتاب عن تطور تدريجي في فهم الجريمة والعقاب في المجتمع المصري:

من العقاب البدني إلى العقاب القانوني - تحول تدريجي من العقوبات البدنية (مثل الجلد والشنق) إلى العقوبات القانونية (السجن والغرامات)، وإن كانت العقوبات البدنية لم تختف تمامًا.

من انتقام الشخص إلى عدالة الدولة - تحول في فهم العدالة من أنها مسألة شخصية (الثأر) إلى أنها مسألة عامة تتولاها الدولة، رغم استمرار ظاهرة الثأر في بعض المناطق.

من العقاب إلى الإصلاح - بداية تحول في فهم وظيفة العقاب، من مجرد عقاب الجاني إلى محاولة إصلاحه وإعادة تأهيله، وإن كانت هذه المحاولات محدودة وغير ناجحة في كثير من الأحيان.

تحليل نقدي للممارسات العقابية

بناءً على ما سبق، يمكن تقديم تحليل نقدي للممارسات العقابية في تلك الحقبة:

الفجوة بين القانون والممارسة - كانت هناك فجوة كبيرة بين النصوص القانونية وكيفية تطبيقها في الواقع، حيث كان التطبيق يخضع للعديد من العوامل غير القانونية: الطبقة، الجنس، الانتماء الطائفي، العلاقات الشخصية، والرشوة.

ازدواجية المعايير - كان هناك ازدواجية واضحة في معايير تطبيق العقاب: معايير صارمة للفقراء والمهمشين، ومعايير متساهلة للأغنياء وأصحاب النفوذ.

فشل التأهيل والإصلاح - رغم وجود خطاب عن إصلاح المجرمين، إلا أن المؤسسات العقابية كانت فاشلة في تحقيق هذا الهدف، وكانت السجون والإصلاحيات مجرد أماكن للعقاب والإذلال، وليس للإصلاح الحقيقي.

تضخم دور الصحافة - كانت الصحافة في بعض الأحيان تؤثر بشكل غير متناسب على سير العدالة، إما بالتأثير على الرأي العام، أو بالضغط على السلطات، أو بتقديم معلومات غير دقيقة عن القضايا.

<u>الدروس المستفادة والعبر</u>

يقدم الكتاب العديد من الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها:

ضرورة العدالة الاجتماعية - العلاقة الوثيقة بين الفقر والجريمة تؤكد أهمية تحقيق العدالة الاجتماعية كأداة للوقاية من الجريمة.

أهمية استقلال القضاء - التدخلات السياسية والاجتماعية في القضاء تؤدي إلى تفاقم مشكلة الجريمة، وليس حلها.

تطوير المؤسسات العقابية - ضرورة تحويل السجون من أماكن للعقاب إلى مؤسسات للإصلاح والتأهيل.

دور الصحافة في محاربة الجريمة - يمكن للصحافة أن تلعب دورًا إيجابيًا في محاربة الجريمة من خلال الرقابة الاجتماعية، والتوعية، والضغط من أجل الإصلاح.

أهمية البحث التاريخي - فهم تطور السياسة العقابية عبر التاريخ يمكن أن يساعد في تطويرها في الحاضر والمستقبل.

خاتمة

يمثل كتاب "هوامش على دفتر أحوال مصر" وثيقة تاريخية فريدة تقدم صورة شاملة عن الجريمة والعقاب في المجتمع المصري خلال النصف الأول من القرن العشرين. من خلال تحليل الوقائع الجنائية التي رصدتها الصحافة، يكشف الكتاب عن علاقات معقدة بين الجريمة والطبقة الاجتماعية، والجنس، والانتماء الطائفي، والظروف الاقتصادية، والسياسية.

كما يبرز الكتاب التطور التدريجي في فهم الجريمة والعقاب، والانتقال من المفاهيم التقليدية إلى المفاهيم الحديثة، رغم استمرار العديد من الممارسات التقليدية. ويثير الكتاب تساؤلات حول فعالية السياسة العقابية في ذلك الزمان، ودورها في تحقيق العدالة، أو في إعادة إنتاج الظلم والتمييز.

إن دراسة هذه الوقائع التاريخية لا تهدف فقط إلى فهم الماضي، بل إلى استخلاص الدروس والعبر التي يمكن أن تساهم في تطوير السياسة الجنائية والعقابية في الحاضر والمستقبل. فالتحديات التي واجهها المجتمع المصري في تلك الحقبة، من فقر وفساد وتمييز وضعف في المؤسسات، لا تزال قائمة بدرجات متفاوتة، مما يجعل دراسة التجارب التاريخية ضرورة ملحة لفهم الحاضر وتجاوز مشكلاته.

في النهاية، يبقى السؤال الأهم: كيف يمكن أن نتعلم من دروس الماضي لتطوير نظام عقابي أكثر عدالة وفعالية في الحاضر؟ الإجابة على هذا السؤال تتطلب قراءة متأنية للتاريخ، وفهمًا عميقًا لتعقيدات المجتمع، وإرادة سياسية حقيقية للإصلاح.

المراجع

عبد العال، محمد فتحي. (٢٠٢٣). هوامش على دفتر أحوال مصر: قراءة في أرشيف الصحافة المصرية. دار ديوان العرب للنشر والتوزيع.

الصحف والمجلات المصرية: المصور، آخر ساعة، الدنيا المصورة، اللطائف المصورة، الأهرام، وغيرها. (١٩٢٠-١٩٥٦).

امل محمود ابراهيم سليم (امل الغزالى)

- ماجستير فى القانون العام وقانون التجارة والاستثمارات الدولية
- نائب رئيس لجنه الشئون القانونية بمؤسسه القادة
- عضو بالاتحاد العام لشباب العمال فرع الشرقية
- خبرة طويلة فى العمل العام
- دورات تدريبية في الذكاء الاصطناعي والأمن السيبراني من أكاديمية ناصر العسكرية